عبد المنعم النمر

الإسلام

والمبادئ المستوردة

الطبعة الأولى

١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م

الناشر



عبد المنعم النمر

الإسلام
والمبادئ المستوردة

الطبعة الأولى

١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م



بسم الله الرحمن الرحيم

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

(صدق الله العظيم)

تقديم

أخي القارىء

في معركة تدعيم الشخصية التى نخوضها الآن بكل الأسلحة ..
وفي محاولة الاكتفاء الذاتي الذى نحاول فى صبر وتضحية ـ
أن نقيم عليه بناء نهضتنا الفتية .
أقدم اليك هــــذا الكتاب : مســـاهمة متواضـــعة فى ابراز شخصيتنا المســـتقلة ، ووضـــع الأضواء على معالم الطريق الأصيل ، الذى يجب أن نرتاده الى غاياتنا الشريفة ، ونحن ما نزال على مفترق الطرق ..

وعلى الله قصد السبيل .. ، وهو الموفق والمعين .

عبد المنعم النمر
المدرس بالأزهر

٩ صـــفر ١٣٨٠ هـ
٢ أغســطس ١٩٦٠ م

بين الإيمان والإلحاد

خلق الله الانسان وفى طبعه ميل أو حاجة الى الاعتراف والخضوع لقوة فوق قوته ، يلتجىء اليها فى الشدائد ، يلتمس منها العون فى دفع الضر أو جلب الخير ، حتى هؤلاء الذين يتعدون طبيعتهم ويتجاوزون طورهم ، فينكرون الأله تجدهم وقت الشدائد التى تمر بهم تنطلق ألسنتهم تستنجد بالله وهم فى غمرة الكرب.. وليس ذلك منهم الا استجابة لما ركز فى طبائعهم من الميل أوالحاجة الى قوة فوق قوتهم ..

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ[1] » .

وقد كان الانسان الأول بادى التفكير ، ينحصر تفكيره فيما حوله ، لايتعداه ،ولايرتقى الى ماوراءه ، فالتمس فى مظاهر الطبيعة التى تحيط به ، مظهرا يمثل العظمة والقوة بالنسبة له ، ليحوطه بتقديسه والرهبة منه ، والتماس الخير من ناحيته ، واتجه الى الجبال الضخمة ، أو الأنهار العظيمة ، أو الكواكب التى يراها على بعد تلمع وتضىء أمامه السبل ، وتيسر له التماس الرزق فقدسها وعبدها ، وفى نفوسنا للآن بقايا من هذه الطبيعة التى تعجب بالقوة ولو فى عراك الديوك ، بعضها مع بعض ..

ثم لما ارتقى الفكر الانسانى قليلا ، استطاع أن ينفذ الى ماوراء هذه الظواهر العظيمة ، التى تحاط بالتقديس ، واتجه تفكير

---

(١) سورة الزمر

المفكرين القلائل الى تجريد هذه القوة من المظاهر المادية شيئا فشيئا ، وارتقوا الى الحقيقة الكبرى ، واقتربوا من معرفتها ، فاعترفوا بها ، وسماها أفلاطون « مثل الامثال » وسماها أرسطو « علة العلل ».

وجاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام فأرشدت الانسان الى الله ، ووصفته بصفاته العليا التى تليق بجلاله ، ودعت الناس الى الايمان به ..

والصورة التى عرضها القرآن الكريم عن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو يخاطب قومه ، ويرشدهم الى الايمان بالله القوى القادر الذى لا يعتريه نقص ولا أفول ، تنبئنا عن المسلك المنطقى الطبيعى الذى سلكه أبو الانبياء مع قومه ، فى ارشادهم الى الاله الحقيقى ، وترك ما عداه ، مما ينظرون اليه نظرة اعظام وتقديس ، حين يؤخذون بضخامته أو قوته ، أو عظم منفعته ، ويمثل فى الوقت نفسه صورة التفكير فى ذلك الوقت وما كان الناس منجذبين اليه من عبادة المخلوقات ، هذه العبادة التى أراد سيدنا ابراهيم هدمها بطريق التدرج المنطقى المعقول ، يحكى الله سبحانه وتعالى هذه الصورة فى سورة الانعام فيقول :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

« وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » .

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ، قَالَ هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » .

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي . فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » .

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ . فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » .

« إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »[1] .

واذا كان بعض الفلاسفة قد استطاعوا الوصول الى هذه القوة العليا ، وسموها بأسماء من اختراعهم ، وجاءت الرسل فأضاءت الطريق لأممهم ، فأن كثيرا من الناس قد ظلوا مرتبطين بالأرض ، أعنى لم يرتفعوا بتفكيرهم الى ما وصل اليه الفلاسفة ، ولم يستجيبوا لما دعاهم اليه الرسل ، فظلوا يقدسون غير الله من المخلوقات التى تحيط بهم ، ويخضعون لنوع أو مظهر منها ، وهؤلاء مهما قيل فيهم فانهم كانت لهم دياناتهم التى تحكمهم وتوجههم كما رأينا فى قدماء المصريين واليونانيين والفرس والهنود .

وجاء مفكرون آخرون ، لم يذهبوا الى ما ذهب اليه اخوانهم الأولون ، بل ضلوا الطريق ، وأداهم تفكيرهم الى انكار أية قوة ، وراء هذه المظاهر التى تحيط بهم ، وقالوا : أن العالم قديم ، ولا موجد له ولا محرك .

---

(١) سورة الأنعام

ونشأت لهم بجوار هذا آراء اجتماعية انحلالية ، فليس هناك حقيقة ثابتة ، يدور حولها الناس ، وانما الحق ما يراه كل انسان حقا ، ولو كان عند الآخرين باطلا ، وليست القوانين والأخلاق التى يحددها بعض الناس الا أساليب تعنتية ، تتيح للقوى التحكم فى الضعيف ، أو منع الانسان من التمتع بلذائذ الحياة !! فالخير اذن كل الخير — عندهم — فى الانطلاق من قيود القوانين والأخلاق التى يقال : أن اتباعها يرضى الاله أو الآلهة ، فليس لهم اله ولا آلهة ! !

والخير والسعادة فى أن يمتع الانسان نفسه بلذائذ الحياة ومتعها ، أية متعة كانت ، وعلى أية صورة ، ويعطى لنفسه حريتها الكاملة فى الحصول على هذه المتعة ، دون حدود أو قيود من الجماعة التى حوله ! !

هذه الآراء التى انبعثت من المدارس اليونانية الفكرية : السوفسطائية ، والقورينائية والكلبية والأبيقورية كانت آراء الحادية ، تشيع الانحلال ، وتسلط معاول الهدم على المجتمع اليونانى ، وعلى كل القيم الأخلاقية الثابتة ، التى حاول فلاسفة يونانيون جادون تقعيدها ، واقامة حياة مجتمعهم على هديها وضوئها ، مثل فيثاغورس وسقراط وافلاطون وأرسطو .

ولقد كانت النتيجة الطبيعية لشيوع هذه المذاهب الالحادية ، الانحلالية الهدامة ، واستجابة الناس لها ؛ ارضاء لشهواتهم ، وغرائزهم الدنيا ، دون أن يفكروا فى عواقب اندفاعهم فى طريقها ، كانت النتيجة الحتمية أن تدهور أمر اليونان وهم الذين نبت فيهم الاسكندر الاكبر الذى استطاع أن يغزو الدنيا المعروفة يومذاك ويفتحها ، واستطاع الرومان بعد قليل أن يخضعوا هذه البلاد العريقة بسهولة ، بعد أن تضعضع شأنها ، وانحلت عراها ، وضعف أمرها .

وتحققت فيهم القاعدة الالهية القديمة ، سنة الله التى لن تجد لها تبديلا :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ[1] » .

ذلك كان شأن أمة الاغريق العظيمة فى الغرب ، وأثر الالحاد فى انحلالها . .

وفى الشرق كانت دولة تناطح هذه الدولة الاغريقية ، وتقاسمها النفوذ والغلبة والسلطان : دولة الفرس أصحاب الحضارة والثقافة الشرقية ، ظلت هـــذه الدولة متماسكة قوية ، حينما كانت متمسكة بدين «زرادشت» ، وما وضعه من قوانين ثابتة للأخلاق ، ومعايير حكيمة للسلوك حتى جاء « مزدك » فى القرن الخامس الميلادى ، بمذهب هدام لمبادىء الدين والأخلاق ، مروج للشيوعية فى المال والنساء ، مما أغرى الناس بمذهبه ، وجمعهم حـــوله ، حتى زلزلوا بنيان مجتمعهم ، وزحفت الرفاهية اليه مع هـــذا فعاش خاويا بلا روح ، مما سهل للعرب المسلمين أن ينقضـــوا عليه ، ويقضـــوا على الدولة العتيـــدة ، لم تنفعهـــا كثرتها أو حضارتها .

ولم يكن غريبا على الاسلام فى هذه الحالة أن يرث دولتى الروم والفرس ، ويقيم امبراطوريته الفتية على أنقاضهما ، فقد ربط الاسلام أبناءه بالسماء ، بالاله الواحـــد الاحد ، ودعاهم الى أن ينفضوا يدهم من كل مخلوق ، ويتصلوا روحيا بخالقهم ، الذى بيده مصيرهم ، واليه أمرهم ، فى دنياهم وآخرتهم ، كما دعاهم الى الحد الوسط ، والى أن يكونوا أمة وسطا ، لا افراط ولا تفريط ، لا روحانية موغلة ، ولا مادية غالية ، وعلمهم أن يقولوا :

---

(١) سورة الرعد

« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (١).

فخلق بذلك من المجتمعات المفككة فى جزيرة العرب وخارجها أمة متماسكة « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٢).
« أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا » (٣)

فكانت عقيدة التوحيد الخالصة ، مع قواعد الأخلاق الحكيمة ، وقوانين المجتمع الرشيدة هى الرباط القوى الذى شد أزر المسلمين وعلى شأنهم ، وقوى بنيانهم ، وطوى الارض لسلطانهم . .
حتى اذا دب فى المسلمين داء الأمم من قبلهم ، واختلفوا على أهوائهم وآرائهم ، وأغرموا بمتاعهم وملذاتهم ونسيتهم سنة الله ، [illegible] الأفكار الغير الاسلامية تأخذ مكانها فى نفوسهم ، وتستبد بعقولهم ، فكانت الدعوات الهدامة ، والمذاهب الغريبة على فكرة الاسلام السمحة ، وأهدافه الاجتماعية النبيلة ؛ مما أضعف شأن المسلمين ، وجعلهم شيعا وأحزابا :
« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » .

---

(١) سورة البقرة
(٢) سورة المائدة
(٣) سورة الفتح

وفى أوربا

قامت النهضة الأوربية الحديثة ، وشارك فى قيامها أمجاد من تفكير المسلمين وعلومهم ، وما خلفوه وراءهم — ايام أن كانوا فى الذروة — من ذخائر الكتب ، وعلوم الأولين من الأغريق ..

ولم تتجاوب الكنيسة — التى كانت مسيطرة على المجتمع الأوربى سيطرة تامة — مع بواعث هذه النهضة ، فحاربتها ، وحاولت خنقها ، والقضاء على المفكرين الذين كانوا ينيرون بأفكارهم الطريق للصاعدين ، وشب النزاع المعروف بين الكنيسة وبين المفكرين ومن يشدون أزرهم ، وثارت الحرب المستعرة بينهما ، والكنيسة تجاهد للابقاء على سلطانها وآرائها ، والعلماء يسفهون رأيها ، ويدعون الناس الى الخروج على سلطانها ، بل الخروج على الدين الذى تحتمى به ، وتستغله لصالحها الذاتية ، ومآربها الشخصية ..

وكان النصر فى آخر الامر للمتمردين عليها ، الذين ساروا فى الطريق الى نهايته ، وخسرت الكنيسة سلطانها ، وأفلت الزمام من أيديها ، وتكونت طبقة من المفكرين تعاديها ، وتعادى الدين الذى تمثله ، وكثر بذلك الملحدون من رواد الفكر فى هذه النهضة الأوربية الحديثة ، وساروا على الدرب الذى سار عليه من قبلهم من فلاسفة الأغريق الملحدين ، الذين كانوا عمالقة التفكير فى نظر مفكرى أوربا أبان نهضتها ، فقالوا بقدم العالم ، وأنكروا أن يكون له خالق .. كما أنكر القدماء ، وغالوا فى احترام العلوم الطبيعية التجريبية ، حتى لم يعودوا يؤمنون بغيرها ، فكان هذا بمثابة رد الفعل على تعنت الكنيسة فى فرض آرائها على الناس ، ونشأت

شبيبة متمردة ترى فى اعتناقها لمذهب الطبيعيين ، ورفع عقيرتها بجحود الخالق وانكاره ، مظهرا من مظاهر التنور العقلى ، والتقدم الفكرى ، فكانت الطامة الكبرى على الدين .

والذين لم يقفوا هذا الموقف الجاحد ، وبقى فى نفوسهم شيء من احترام الدين والكنيسة ، رأوا أن يعزلوها عن حيـــــاتهم العامة ، حتى لا يدخلوا فى تجربة أخـــــرى من تنازع السلطان بينهم وبينها ، فمنعوها من التدخل فى شئون الحكم والعلم ، أو بالعبارة المشهورة : فصلوا بين الدين والدولة ، وانطلقوا انطلاقة المحبوس ، يباشرون أمورهم كما يريدون ويحلو لهم .

ميلاد الشيوعية

وفى ظل المادية الطبيعية الجاحدة وتقديسها ، رضع «ماركس» لبان الجحود والثورة على الاله ، ومن جحـــوده وانفعالاته من استغلال أصحاب الاعمال للعمال وارهاقهم ، واضطهادهم وعدم انصافهم ، نبعت مبادئه الشيوعية ، التى لاقت رواجا كبيرا وسط العمال المضطهدين وبعض المفكرين ، حتى صار لها على مر الزمن دولة قوية تدين بمبادئها وتروج لها . ثم زحفت وصارت لهـــا دول عديدة وأنصار كثيرون فى كل مكان .

ومن هنا كان الخطر فى نظريات ماركس ومبـــادئه . فقـــد ظهر فى أوربا كثيرون من الملحدين الجاحدين للاله ، المتطاولين على الاديان ، الساخرين منها ، ولكن لم يكن لهم من الاثر والخطـــر مايوازى واحدا فى الألف أو المليون من آثار «ماركس» ومبادئه الجاحدة ، ذلك أنه مزج فكرته فى انكار الاله بأفكاره السياسية والاجتماعية ، التى دعا فيها الى انصاف الكادحين ، واعطائهم حقوقهم ، بل الى تسويدهم على غيرهم من الطبقات ، وصور لهم الدين بأنه العقبة التى تحول بينهم وبين هذا الصعود أو هـــذا الفردوس المنتظر . وأنه يتيح للمستغلين من الاقطاعيين استغلالهم ، ونجح فى هذا التصوير الى الحد الذى جعـــل من أتباع مبادئه السياسية والاجتماعية أعداء طبيعيين للدين ، أى دين .

نعم من هنا كان خطر ماركس على الأديان .

فلم يخل زمن من الازمان من جاحدين منكرين للألوهية قديما وحديثا ، ولم يخل زمن كذلك من دعاة الى مذاهب جـــديدة ،

ولكنا لم نجد مذهبا يسرى سريان النار فى الهشيم أو سريان الوباء فى الأجسام ، مثل هذا المذهب ؛ اذ كان ما ادعاه من مبادىء لانصاف العمال ، وتسويدهم على غيرهم ، ومن فكرة شيوع الأموال طعما مغريا ، أسال اللعاب ، نتهافت عليه الناس تهافت الفراش على المصباح .

ثم قامت له دولة بل دول تناصره وتحميه ...

ولو خلا هذا المذهب من تهجمه على الأديان ، وانتقاصه من شأن الرسل ، وازدرائه للمعانى والقيم الروحية التى لاتطيب الحياة الا بها ، ولا يحس الانسان بانسانيته ، ومثله العليا الا من خلالها ، لو خلا هذا المذهب من هذه الأوباء ، لأمكن أن يتقابل فى كثير من توجيهاته ونظمه مع كثير من الدعوات ، التى تهدف الى الارتقاء بالفرد والجماعة ، وتكوين المجتمع الصالح الذى تقوم فيه الموازين بالقسط ، ويسعد الفرد والجماعة فى ظلاله .

ولكن موقف «كارل ماركس» وأتباعه من الأديان والقيم الروحية يجعل كل انسان يشعر بانسانيته وحريته ، ولذة اتصاله بالله الخالق المبدع ، وتقديره للقيم الروحية ، وبالتالى يجعل كل انسان يعتز بدينه — أى دين كان — يقف منه ومن شيوعيته موقف الحريص على قيمه الروحية ، الحذر على هذه القيم من أن تهدمها الشيوعية ، موقف المدافع عن أعز شيء لديه — وهو دينه — ان تغتاله هذه السموم الماركسية ، التى حرص صاحبها على تقديمها لضحاياه فى ثوب الحرص عليهم ، والرغبة فى رفع مستواهم ، فكانت كالسم فى الدسم .

ان الذى لاشك فيه بأى حال من الاحوال هو الموقف العدائى لكارل ماركس وشيوعيته من الأديان ، استفاضت بذلك النقول

التى نقلت عنه ، وعن أساتذته وتلامذته ، وعن أقطاب الدولة التى قامت على مبادئه ، وأكدت هذه النقول العدائية تلك الاعمال الهجومية ضد الأديان فى هذه الدولة وأمثالها .

هذه الأعمال التى كانت تخف وطأتها أحيانا عندما يكون الساسة غرض سياسى من مهادنة الأديان ، ثم لا تلبث أن تعود الى شدتها ، والى ترسم المبادىء الشيوعية الصريحة فى عداوتها وتحقيرها للأديان .

يقول « هوبز » أستاذ « كارل ماركس » :

« أن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله ، فوجودى هو المؤكد ، وما عداه خرافة وخيال لا أصدقه » !!

وهذا كلام صريح فى انكار الاله ، والقيم الروحية التى لا يمكن ادراكها بحواسنا .

ومن هذا النبع المادى الالحادى استقى « ماركس » مبدأه فى انكار الاله ، ثم عمل على تدعيمه وبثه فى النفوس المريضة ..

فقال فيما قال : « لا اله ، والحياة مادة »

وقال : « ما الدين ، والأخلاق ، والقانون فى نظر «البوليتاريا»(١) الا آراء برجوازية (٢) ، ورسالة « البوليتاريا » هى القضاء على الدين ، والداعين اليه »

---

(١) الطبقة العاملة التى يدعى «ماركس» التحدث باسمها والغيرة عليها

(٢) أى آراء الطبقة الوسطى التى يدعى «ماركس» أنها تحمى نفسها ومصالحها باستغلال الدين والاخلاق والقانون ..

وقال : « ان الدين هو أفيون الفقراء »

أى أنه — فى نظره — يخدرهم عن الشعور بمصالحهم ، والدفاع عنها ضد الظالمين المستغلين .

وقال زميله وصديقه « فريدريك انجلز » الانجليزى : — « لا محل مطلقا لوجود خالق فى هذا الزمن ، الذى ظهرت فيه نظرية التطور ، التى يقوم عليها الكون ، وان الحديث عن كائن أعلى خارج هذا العالم الموجود ، يتضمن تناقضا فى التعبير »
ومعنى كلامه فى وضوح أن ظهور نظرية التطور ، أى وجود هذا العالم وما فيه نتيجة لتطور الاشياء ، يجب أن تقضى على فكرة وجود الخالق ، اذ لم تعد بعد اقرار نظرية التطور حاجة الى موجد لهذا الكون ؛ لما بين الفكرتين من تناقض ! ! هكذا يقول ! !

ويقول « لينين » وهو أول من أقام فى روسيا حكومة على مبادىء الشيوعية : « الماركسية هى المادية ، ومن ثم فهى معادية للدين » .

وكتب مرة الى الأديب الروسى ألكبير « مكسيم جوركى » يقول له : — « ان البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ ، وبدون أن نزرع لا يمكن أن نحصد ، وليس لك اله ؛ لانك لم تخلقه بعد ، فالآلهة لا يبحث عنها ، ولكنها تصنع »

ومعنى كلامه هذا أن الاله فكرة من اختراع الناس وايجادهم ، وليس له وجود حقيقى ، فالناس هم الذين يصنعون الآلهة بأفكارهم ، وتخيلاتهم الباطلة ، ثم يعبدونها ويخضعون لها » . ! !
وكأن لينين كان يمهد الطريق لنفسه ! !

وفى كتابه « الاشتراكية والدين » يقول : « قال ماركس : ان الدين أفيون الفقراء (١) ، وهذا حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات جميعها ، والكنائس ، وكل أنواع المنظمات الدينية ، آلة لدى العقل البرجوازى ، الذى يستهدف الاستغلال ، بتخدير الطبقة العاملة » ! ! .

ويقصد بكلامه هذا أنه لامهمة للأديان وأجهزتها الا تمكين الطبقة الوسطى والعليا من استغلال الطبقة العاملة الفقيرة ، ولهذا سمى الدين « أفيون الفقراء » ومخدرهم ، والدين فى رأيه من صنع أصحاب المصالح لاستغلال الفقراء لامن عند الله ، اذ ليس لله وجود عنده ! !

ويوضح هذا المعنى كلام له فى نفس الكتاب يقول فيه : «الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طول حياتهم ، الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ، ويغريهم بالامل فى الثواب فى العالم الآخر » .

والاسلام فى مقدمة الأديان البريئة من هذا التهجم الشنيع ، اذ لو كان الاسلام كذلك لما وقف الأغنياء وأصحاب المصالح فى مكة ضده ، ولما حاولوا بكل وسيلة هدمه ، والقضاء عليه مدة وجوده فى مكة ، وبعد أن خرج منها .

وتشريعات الاسلام ترمى الى حماية الضعفاء والفقراء من سطوة الأقوياء والأغنياء ، بل انها تهدر فارق الغنى والفقر ، وفارق النسب والجنس ، وتضع الجميع امامها موضع المساواة ، وتجعل للفقراء والمحتاجين حقا معلوما فى مال الأغنياء ، تقاتلهم الدولة حتى تستوفيه ، ان امتنعوا عن أدائه ، ولم تجعل الصبر

---

(١) وفى عبارة قالها « لينين » الدين نوع من « سيفوخا » يريد عبيد المال ان يدفنوا اخلاقهم فيه « وسيفوخا » هو أردأ أنواع الفودكا ذو رائحة كريهة . (كتابات لينين المجلد ١٠ ص ٦٥) عن مجلة الشؤون السوفييتية العدد الاول ١٩٥٨ .

الذى أوصت به الا علاجا نفسيا لما لا يستطيع الانسان بجهوده ، واستنفاد طاقاته وامكانياته بلوغه ، فى الوقت الذى جعلت فيه الضعف والاستسلام ، وعدم الدفاع عن الحقوق ، والخضوع للذل والاستعباد ، سببا لغضب الله .

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا[1] » .

والهجرة الى البلاد الحرية حين لا يستطيع الانسان الانتصاف لنفسه ويعجزه عجزا تاما عن الدفاع عن حريته ، هى آخر خطوط الدفاع عن هذه الحرية كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وكما يفعل الاحرار الناجون بأنفسهم من ظلم حكامهم فى هذه الايام .

وذلك فى الوقت الذى وضع فيه القرآن بصريح عبارته الانتصار للحق ، ومحاربة البغى والعدوان قربات عند الله فى صف الصلاة والزكاة وذلك حين يقول :

« وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى

---

(١) سورة النساء

بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »(١) .

فالاسلام لا يعرف الذل ولا الخضوع ، ولا يرضى من أتباعه بالضعف ، ولا يخدرهم عن السعى لنيل حقوقهم ، بل يدفعهم دفعا للحصول على هذه الحقوق ، وليس الصبر الا دواء مسكنا لهيجان النفس ، حين لا تبلغ مآربها بعد أن تستنفد جهودها ، وذلك حتى تحفظ توازنها ، وتحسن تصرفاتها . وتتخلص من الجزع ، والصدمات النفسية التى تقضى على الانسان .. فهل فى مثل هذا الصبر من عيب ؟ ! لانه نفس الشيء الذى توصى به النظريات الحديثة فى علم النفس ، تفاديا لكثير من الصدمات القاتلة للانسان .

ولكن الشيوعيين يقولون ما يقولون عن جهل بالاسلام أوعناد له ، ويتخذون من الألفاظ والأساليب ، والاتهامات الباطلة ما يخدعون به فكرتهم ، ويحولون بين الشعوب وبين التدين بالدين ، والانقياد لله ؛ لكى يصبحوا هم — بعد ذلك — الآلهة ، ومبادئهم هى الدين . ! !

جاء فى مقدمة كتاب ألفه « لينين » : « الالحاد جزء طبيعى من الماركسية لا ينفصل عنها »

ويقول : — « نضالنا ضد الدين ، وضد جميع الرأسماليين حقيقة لا مراء فيها ، وهذه ألف باء الماركسية »

« واذا ناضلنا الدين فيجب علينا هدم الأسس الاجتماعية التى يقوم عليها ، ويجب ربط ذلك بمحاربة أنواع الطبقات (٢)» .

---

(١) سورة الشورى

٢ كليات لينين المجلد ١٥ ص ٣٧ عن المجلة السوفييتية العدد السابق ..

الشيوعية والمسلمون

وعند قيام الثورة الشيوعية فى روسيا (أكتوبر سنة ١٩١٧م) لم تر من الحكمة الدخول فى حرب مباشرة ضد الاسلام الذى يدين به نحو ٣٠ مليونا فى بلاد قازان ، والتركستان ، والقوقاز الخاضعة لحكمهم ، فقد كان لهؤلاء المسلمين من قبل نضال موصول رهيب ضد طغيان القيصرية ، دفاعا عن دينهم وقومياتهم ، فرأى زعماء الشيوعية وعلى راسهم «لينين» أن يخادعوا المسلمين ويهادنوهم ، ويرخوا لهم الحبل قليلا ، حتى يتفرغوا لغيرهم ، ولا يثيروا المشاكل عليهم من كل جهة ، بل ليكسبوا المسلمين الاشداء فى صفوفهم ، وهم المحتاجون لكل عون لثورتهم إبان قيامها .

وتمثل ذلك فى البيان الذى أصدرته رئاسة الوزارة الروسية المنعقدة فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٧ ووجهته الى جميع المسلمين فى روسيا تقول فيه : —

« نعلن من الآن فصاعدا أنكم أحرار فى دينكم وعاداتكم ، ومدارسكم القومية مصونة من أى تدخل ، فأسسوا حياتكم القومية دون عائق .. **حافظوا على الثورة وساعدوا حكومتها صاحبة كل الصلاحيات** (١) » . حافظوا على الثورة وساعدوا حكومتها .. كان هذا هو الغرض من هذه المهادنة التى لا تتفق مع مبادىء الشيوعية .

---

(١) السجلات التاريخية لمعرفة المسلمين داخل روسيا تأليف ن. ايستمبرتوف . من نشر دائرة المعارف بموسكو ١٩٥٤ ص ١٣ عن المجلة السابقة .

ولذلك لم يلبثوا أن عادوا الى مبادئهم عندما استقرت لهم الاوضاع ، وأمسكوا بزمام الموقف ، فأعلنوا فى المؤتمر الشيوعى المنعقد فى عام ١٩٢٣ بدء الحرب ضد الاديان ، وتوجيه الضربات الشديدة اليها ، وجاء فى تقرير هذا المؤتمر جزء خاص بالمسلمين يقول : —

«يوجد داخل اتحاد الجمهوريات ثلاثون مليونا مسلما كانوا يعيشون الى الآن دون أن يمسهم شيء ، كما أنهم يحافظون على عقائد باطلة ، وخرافات من العصور الوسطى ، لها صلة بالدين ، وغايتها الاضرار بالثورة ، وبعد أن نظرنا فى هذا كله ، ودرسنا خصائص كل أمة على حدة ، قررنا القيام بالخطط والتدابير الواجب عملها ، لازالة هذه العقائد الباطلة من أوساط هذه الأمم(٢) » .!!

وبدأت بعد ذلك الهجمات المتوالية على الاسلام والمسلمين ، ومساجدهم ومعاهدهم الدينية .

وقد كانت هذه البلاد الاسلامية من قبل منبت كثير من العلماء الأفذاذ ، الذين خدموا الاسلام واللغة العربية ، بما خلقوه وراءهم من مؤلفات ضخمة ، فى مختلف الأصول والفروع ، لازال المسلمون فى أنحاء الارض يعتزون بها ، ويستقون منها معارفهم .

كانت مساجدهم مثال الفخامة والفن الرفيع ،وكانت مأوى للعابدين الساجدين ، والملتمسين العلم فى حلقاتها ، والغداء فى رحابها .

عرفنا مدنها الرئيسية ، ورددناها مرارا ، كلما ذكرنا العلماء الفطاحل الذين نبتوا فيها والذين نقرأ مؤلفاتهم الدسمة . عرفنا سمرقند ، وترمذ ، وطشقند ، وبخارى ، ونسف وغيرها .

---

(١) قرارات ونتائج مؤتمر الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى القسم الاول الطبعة السابعة سنة ١٩٥٣ ص ٧٤٤ (المجلة السابقة)

وبين أيدينـــا مؤلفـات السمرقندى، والترمذى مؤلف جامع الترمذى فى السنن والبخارى . صاحب صحيح البخارى . والنسفى وكثير من هؤلاء العلماء .

وقد رحل الى هذه البلاد الرحالة المسلم ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وذكر لنا زيارته لقبر « قثم بن العباس بن عبد المطلب » ، الذى استشهد فى سمرقند حين فتحها ، ووصف كيف يأوى اليه الناس ، ويقدمون له النذور ، ووصف لنا أعمدته من الرخام الأخضر والأسود ، والابيض والأحمـــــر ، وقبته المصنوعة من الرخام المجزع المنقوش بالذهب ، والقبر المصنوع من خشب الأبنوس المرصع ، الذى كسيت أركانه بالفضــــة ، وعلقت عليه قناديل من الفضة ، وكيف يأوى المحتاجون للطعام الى رحاب المساجد ليأكلوا .

وكيف زار قبر الامام البخارى ، وغيره من العلماء والأئمة فى مدينة بخارى ، وتحدث عن المسلمين هناك ومساجدهم ومعاهدهم وأمجادهم .

ويأتى مسلم أديب فى العصر الحاضر وهو الاستاذ عبد المنعم العدوى الذى رحل الى روسيا فى وفد العلماء الباكســتانيين بدعوة من حكومتها أواسط سنة ١٩٥٧ ، وزار هـــذه البلاد ، وكتب عنها فى مجلته « العرب » ، التى تصــــدر فى كراتشى (العددان التاسع والعاشر — ذى القعدة ذى الحجة سنة ١٣٧٦ هـ) ، فذكر لنا فى عدد خاص ما أنقل بعضه هنا لكى يتصور القـــارىء مجد هذه البـــلاد فى الماضى ، وما آل اليـــه أمرها الآن فى ظل الشيوعية يقول :

« ثم توجهنا — فى طشقند — الى ضريح الامام القفال الشافعى الحجة ، الذى يعتبر عند الشافعية كأبى يوسف عند الحنفية ،

وقد اختفت معالم المسجد الذى كان بجواره ، وليس فى الصريح فرش أو ستر »

« ولا بد من الاشارة هنا الى ظاهرة غريبة ، وهى أن جميع الذين استقبلونا من اخواننا المسلمين ، منذ يوم وصولنا الى طشقند الى سفرنا منها — وقد قضوا فيها ستة أيام — سواء أكان فى المطار أم فى المساجد والأضرحة التى زرناها ؛ هم من الطاعنين فى السن ، ولا يوجد من بينهم من الشبان الا قليل جدا ؛ أما الفتيان فقد اختفوا وراء جدران مراكز التدريب الشيوعى ، والمدارس السوفيتية » .

وفى سمرقند يكتب عنها فيقول : « وهى مدينة عريقة ، لها فى التاريخ الاسلامى صفحات مليئة بالمجد والفخار » .

«توجهنا على الفور لزيارة مقبرة زوجة تيمورلنك ، وتقع فى بناية مهجورة ، بها قبة على وشك السقوط ، وبجانبها مقبرة زوجة « مرزا أولوغ بك » ، العلم الفرد الحجة فى علم الفلك ، وقبر أستاذه المشهور « علاء الدين الرومى » ، وأصله من تركيا ، وكان من أعلم علماء الفلك فى زمانه » .. « وهذه المقابر كلها ليس بها ستر أو فرش ، وقبابها يكاد يتساقط ما بقى فيها من قيشانها الجميل » .

« ثم يممنا وجهنا شطر مقام سيدنا « القثم بن العباس » رضى الله عنهما ، فألفيناه تضمه قبة ، علاها البلى ، وتساقط من عليها جميع قيشانها ، أو اقتلع عنوة ، ورأينا رتاج بابها فى حالة يؤسف لها ، وشاهدنا على الباب هذه العبارة محفورة فوق الرتاج : « قال النبى العربى الهاشمى القرشى المكى المدنى عليه السلام « القثم بن العباس أشبه الناس بى خلقا وخلقا » ، والقثم هو الذى استشهد على رأس جيش المسلمين فى فتح بلاد ماوراء

النهرين سنة ٥٧ هـ وهو ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ». وهذا المسجد هو الذى مر أن ذكرنا وصف ابن بطوطه لروعتـه وفخامته ، مع أنه جدد بعد زيارته ، وزيد فى عمارته وفخامته .

وبعد أن يذكر الاستاذ العدوى مشاهداته لزيارة كثيـر من أضرحة الاولياء ، والعلماء المشهورين يقول : —

«وانتقلنا بعد ذلك الى محلة « بنج كند » ، فمـررنا عليها ، وهى التى قيل بأن « أبا حيان » صاحب التفسير المشهور ، والعالم الحجة الكبير ، فى المعقول والمنقول ولد فيها .

« ومررنا على مدرسة « بى بى خاتم » زوجـة « تيمورلنك » ، أو قل أطلال هذه المدرسة الاسلامية العالمية الزاهرة ، التى أنجبت صفوة من أئمة المسلمين الاعلام ، أمثال الجرجانى ، والنسـفى والتفتازانى ، وغيرهم ، وكانت حلقات تدريسها تفوق الأزهـر الشريف فى عصرها ، وكان من يحضرها من الطلبة ، ومن جماهير المسلمين ، أكثر من ثلاثين ألفا ، وكانت بها مجموعة كبيرة من غرف ومساكن الطلبة والعلماء ، والأئمة والمؤذنين والضـيوف والوافدين ، وقد سكن هذه الغرف : الامام القفـال ، وأبو نصر الفارابى ، والمرغينانى صاحب الهداية ، وأبو الليث السمرقندى ، وخواجه بهاء الدين النقشبندى ، وأبو على ابن سينا ، وعبد الخالق العجدوالى ، وغيرهم ممن كانوا يدرسون فيها ، وكانت فيها مكتبة اسلامية لامثيل لها فى العالم ، واذا علمنا أن « سمرقند » كان عدد سكانها فى عهد «تيمورلنك» مليونا من المسلمين ، أدركنا عظم شأن هذه المدرسة ، ، التى حبست لها « بى‌بى خاتم» أوفافا غنية ، تضمن لها أجيالا متعددة من العيش الرغيد .

لقد اختفى كل ذلك الآن ، وتحطمت وتهدمت هذه المدرسة بفضل البلشفية ، فأصبحت لا يرى الا آثار قبابها المكسـوة

بالقيشانى ، التى تركوها بعـــد ان دمروا كل شىء فيها ، ولم يسمحوا لنا بدخولها ، أو الاقتراب منها ، حتى لاتكبر الفجيعة فى نفوسنا ..

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   ان كان فى القلب ايمان واسلام

ثم يصف لنا مدرسة أخرى ، زاروها فى ٧ يوليو سنة ١٩٥٧ ؛ وهى مدرسة « شيردار » فيقول : —

« وهذه هى المدرسة الكبرى الثانية فى « سمرقند » ، والقلم يقصر عن وصفها ، فهى فى كبرها واتساعها تبلغ مساحتها أربعة أضعاف مساحة الازهر الشريف ، ورتاج بابها الداخلى المكسو بالقيشانى لايرتفع بصرك اليه الا اذا امسكت غطاء راسك بيدك !! وقد نقش على جانب منه بالقيشانى صورة أسد ضخم ، علامة القوة والبأس ، وقد رأينا أكثر جدران هذه المدرسة محطمة ، ولكنها مازالت قوية ، وقد أصبحت الآن متحفا ، وقد دفن تيمورلنك فى هذه المدرسة ، وبجواره أستاذه ايشانخان مير ، وميرزا أولوغ بك » .

« وتوجهنا بعد ذلك الى قبر الامام الحجة ، صـــاحب أصح كتاب فى الحديث ، بعد كتاب الله الكريم ، أبى محمد(١) بن إسماعيل البخارى فى قرية ، تبعد عن سمرقند بنحو ثلاثين ميلا ، توفى فيها وهو فى طريقه من بخارى الى سمرقند .

« وصلنا الى الضريح ، فاذا به يقع فى بقعة من بستان ، كان رباطا لأهل العلم والفضل ، فأهمل شـــأنه ، وجفت بحيرته ، وتحطمت أكثر جدره » .

« وتوجهنا الى ردهة المسجد ، فرأيناهم قد فرشوها بالحصير،

---

(١) صحته : ابو عبد الله محمد بن اسماعيل)

وقطع البفتة اكراما لنا . وبعد أن صلينا ركعتين فى الردهة، لاحت منا التفاتة نحو باب هذه الردهة ، المؤدى الى داخل المسجد الكبير الاصلى ، وكان مغلقا قليلا — ولم يفتح ، ولم يسمح لنا بدخوله — فاذا هو مهجور ، وبعض جدره عليها آثار حريق ، وأرضه يعلوها التراب ، وقد اقتلعت حجارتها ، فذرفت من عينى دمعة سخينة.

« ثم أخذونا الى حيث مقر الضريح نفسه ، فدخلنا وقرأنا السلام على هذا الامام العظيم ، ورأينا قبره وقد اختفى رونق بهـائه ، وهدم فناء ضريحه ، وزالت معالم القبر الاصلى ، وحل محله قبر عادى ، لانسان مجهول »

ويتحـدث عن قضائهم يوم عيد الأضحى فى طشقند سنة ١٣٧٦ هـ فيقول :ـ

وقد لاحظت داخل المسجد — الذى صلينا فيـه العيد — وخارجه ، عدم وجود غلمان وصبية معنا فى هذا اليوم الزاهـر السعيد ، ذلك لان اليوم هو يوم الاثنين ، ولا تغلق فيه مدرسة ولا يسمح فيه بتغيب أى تلميذ ، كما لاحظت أن الحكومة منعت ذبح الأضاحى يوم العيد ، كما منعت اعطاء اجازة لهم ، لأنهـا لا تعنى بمظاهر أى دين من الأديان » . اهـ !!!

لقد أطلت قليلا فى الاقتباس من مشاهدات الصحفى الباكستانى الاستاذ العدوى ، لكى تلمس معى عظمة هذه البلاد الاسـلامية فى الماضى ، وكيف كانت معقلا من المعاقل الاسلامية ، ثم تحولت فى طرفة عين ، وزالت كل هذه المعالم ، وأصبح من المحرم عليهـا أن تظهر شعورها كما تريد ، نحو دينها ، بعد أن أزالت المسـاجد والمدارس ، نتيجة لسياسة الشيوعية ، ونظرتها نحو الاديان ، وبخاصة الدين الاسلامى .

ولعلك لاتعجب بعد ذلك ، حين أنقل لك احصاء عن المساجد ، التى أزالها الشيوعيون ، بعد أن انتهت مهادنتهم للأديان فى أيام حكمهم الاولى ، حين استقرت لهم الأمور ، وعادوا الى مبادئهم ، وموقفهم العدائى من الاديان ، فأوقعوا بهذه البلاد الاسلامية العريقة نكبة تفوق الوصف ؛ اذ ليست هناك نكبة ، أفظع من تجريد البلاد العريقة من تاريخها ودينها وكل ماضيها بالقوة والارهاب ، وارغامها على قبول وضع يتنافى مع هذا الماضى .

وتصور معى بلاداً غنية ، ذات تاريخ اسلامى مجيد — كما عرفت — وتعتبر مصدراً هاما من مصادر الثروات الدولة الروسية ، يسلب منها استقلالها ، وتبتز منها خيراتها ، وترغم مع ذلك على قبول عقائد وتشريعات ، تتنافى مع دينها وعقائدها ، ثم لا تستطيع أن تقول كلمة تتعارض مع الوضع الجديد المفروض عليها ، والذين دفعهم اخلاصهم لمبادئهم ، وحماسهم لعقيدتهم وتاريخهم الى شىء من المعارضة الخفيفة ، كان مصيرهم القتل والنفى الى مجاهل سيبريا ، حتى انتهت حياتهم فى هذا المنفى الرهيب .

أليست هذه هى أعظم النكبات التى حلت باخوان لنا ، كانوا مثلا عاليا فى التمسك بدينهم والعمل له ؟!

نشرت مجلة الشؤون السوفيتية(1) احصاء عن المساجد التى اغلقت ، وحولت الى نواد ومخازن المستودعات ، نقلته عن « اجتماع المطوعات للمسلمين مونخر مركور ١٣ أغسطس سنة ١٩٥٦ م » أضعه امامك هنا :

الجوامع التى أغلقت بالتركستان :	١٤	الف جامع
الجوامع التى أغلقت بالأبدل — أورال :	٧	آلاف جامع

---

(1) العدد السابق الاشارة اليه

الجوامع التى أغلقت بالقوقاز	:	٤	آلاف جامع
الجوامع التى أغلقت بالقيرغيز	:	١	ألف جامع
المجموع	:	٢٦	ألف جامع

فهذا العدد الضخم — مهما فرضنا فيه من مبالغة — يمثل حالة بشعة ، ومصيبة فادحة ، ألمت بالمسلمين فى هـذه البلاد على يد الشيوعيين ، ولعل ما نلمسه بأنفسنا من كثرة المهاجرين، من هذه البلاد الى مختلف البلاد الاسلامية ، والذين رأيت منهم الكثيرين فى الحجاز ، وعرفت منهم كثيرا مما نزل بهم من فظائع وارهاب ، اضطرهم لترك بلادهم ووطنهم ، هائمين على وجوههم؛ فرارا بدينهم وحياتهم ، لعل فى هـذا ما يقرب لنا ما نقلته الاحصائيات عما حل بالاسلام والمسلمين فى هذه البلاد .. والا فما الذى دفع هذه الكثرة من المسلمين الى ترك ديارهم ، وأموالهم ومصالحهم فى وطنهم العزيز على نفوسهم ؟ ما الذى حملهم على مغادرة الوطن — والوطن عزيز على كل نفس — الا هذه النكسات التى حلت بدينهم وحريتهم ، وهذا الارهاب الفظيع الذى يسود بلادهم ، ويتربص بهم ؟ !

واذا كان الارهاب الروسى قد ارخى قبضته الآن قليلا عن المسلمين ، وسمح لهم بفتح بعض المساجد ، لأداء الصلوات فيها، فذلك لأنه اطمأن الى من رباه من شباب المسلمين على مبادىء الشيوعية، وما غرسه فيهم من كراهية الأديان ، والاستخفاف بتعاليمها ، فلم يعد رواد هذه المساجد الا من العجزة ، بقايا عصر ما قبل الشيوعية ، وينقرضون تدريجيا ، ويتحقق بذلك هدفهم من القضاء على الدين ، فى الوقت الذى يكسبون فيه دعاية حسنة ، أمام العالم الاسلامى ، بفتح هذا العدد الصغير جداً من المساجد.

يقول الاستاذ عبد المنعم العدوى فى العدد المخصوص من مجلته : « لقد كانت تركستان الغربية تزخر بنحو ٢٧ الف مسجد،

كما ذكر ذلك بعض المؤرخين .. ولنذهب بعيدا ، ونأخذ من هذا العدد نصـــفه أو ثلثه أو ربعه ، حتى تخف الضربة على رءوس الناعقين ، وأبواق الدعاية ، فنقول : أين مساجد المسلمين أيتهـا الدعاية ، ولم نر فى « طشقند » منها سوى ستة مساجد صغيرة، أطلقوا سراحها أخيرا لمسلمين ، ليرمموها بعد ذلك من عـــرق جبينهم ، ووراء ذلك دعاية طويلة عريضة ، لتغرير بلدان الشرق الأوسط ؟ !

« وطشقند » معروفة بأنها كانت المدينة الثانية الكبرى ، بعد «بخارى» المليئة بالمساجد ، ولم نر فى «سمرقند» سوى مسجدين، وبقايا آثار اسلامية مهدمة ... أما «بخارى» فقد حالوا بيننـا وبين رؤيتها ؛ لما آل اليه أمرها ، بعد تدمير كل المعالم الاســلامية فيها ، والقضاء على نحو ٣٦٠ مدرسة دينية شبيهة بالازهـــر الشريف .

ولقد كانت طشقند ، وسمرقند ، وبخارى ، وستالين آباد (دوشنبه سابقا) ، وبلاد ماوراء النهرين كلها تزخـــر بالكتب العربية ، والفارسية ، والتركية ، وغيرها من لغات المسلمين ، التى كانت تدرس فى مدارس هذه البلاد . فأين هى الآن ؟ لم يعـــد شيء منها ، فقد أبيدت ، ومنع تداولها ، وحرم اســـتيرادها ، واستبدل بها اللغة الروسية ، وحرم استعمال الحروف الابجدية العربية ! !

« والشيء العجيب الذى لا نستطيع أن نفهمه أو نتصوره ، انه فى الوقت الذى دمرت فيه المساجد والمدارس ، والمعـــاهد والآثار الاسلامية ، وترك بعضهـا على الانقاض ، وفى حالة يرثى لهـا ، قد عنوا بكنائس القيصر التى حولت الى متاحف ، عنـاية كبيرة للغاية ، فاذاكانت عداوةالشيوعية للاديان تتجلى فىمحاربتها

فان عداوتها للاسلام تبدو أشد وأفظع . »

وليس ذلك غريبا ، فالروس يفهمون أن الاسلام ليس دين عبادة وصلوات فقط ، ولكنه دين عبادة ونظام اجتماعى ، وضع لكل حالة قانونها ، ولكل مشكلة حلها ، فهو من هذه الناحية أخطر الاديان على الشيوعية ، ونظمه الاجتماعية التى كفلت سعادة الناس فى ظل الامبراطورية الاسلامية الاولى ، لاتزال كفيلة بتحقيق هذه السعادة لكل من أخذ بها ، ونهج فى الحياة على منوالها ، فهو مزاحم قوى يخشى منه ، وعدو شديد المراس ، مسلح بكل سلاح ، فهم لذلك يشددون النكير عليه ويقسون فى حربه ، ويبالغون فى القضاء عليه ، حتى لا يبقى فى نفوس أبنائه حنين اليه .

ومهما ظهر لنا من بوادر قليلة ونادرة ، تظهر الشيوعيين فى مظهر المتسامح مع الاديان ، فليس ذلك الا ذرا للرماد فى العيون ، ليس ذلك تنازلا عن مبادئهم ، ورجوعا الى حظيرة الدين بحال من الاحوال ، و « العبيط » هو الذى يؤخذ بهذه المظاهر ، ويخدع بهـا ، فان جميع زعمائهم على مر الايام أكدوا عداوتهم للدين ، واعلان الحرب عليه .

ففى برنامج المؤتمر السادس الشيوعى المنعقد سنة ١٩٢٨ م « الحرب ضد الدين ـ أفيون الشعب ـ تشغل مكانا هاما من أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هذه الحرب باصرار ، وبطريقة منظمة ، وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ، ولكنها فى الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التى تملكها للقيام بدعاية ضد الدين ، وتنظم التربية على أساس التصور المادى للدنيا » ، وفى نشرة الحزب الشيوعى جاء فيها : « لايستطيع حزبنا أن يكون محايداً للدين ، لأن الدين ينافى الشيوعية والشيوعية تنافيه » !!

ونشرت جريدة شيوعية اسمها « التترستان الحمراء » مقالا

جاء فيه : « فى اجتماع المؤتمر النسائى الذى عقد فى ٨ مارس سنة ١٩٣٠ م ، بحث موضوع تربية الخنازير ، وكانت نساء التترستان ، اللواتى يؤمن بالقرآن ، لايربين الخنازير أبدا ، ولكن هؤلاء النساء التتريات ، أصبحن لايخفن الله ، وأنقذن أنفسهن من الاعتقادات القديمة الباطلة ، انهن قد تغلبن على الله ، والنبى والفقهاء ، والرؤساء الدينيين، لقد تغلب الخنزير على الاسلام »!(١)

هكذا يكتبون بمثل هذا التحقير للاسلام !!

وفى الدستور السوفييتى الذى صدر سنة ١٩٣٢ م نص على وجوب القضاء على الاديان ، كما أنه صدر فى مايو سنة ١٩٣٢ قانون الهيآت الدينية خلال خمس سنوات مقبلة جاء فيه : « فى أول مايو سنة ١٩٣٧ لن يبقى فى كافة البلاد مكان للعبادة ، ويجب القضاء على فكرة الاله ، التى هى من بقايا القرون الوسطى المظلمة »

كان هذا مشروع الخمس السنوات تجاه الدين ..

وما نقلته عن مجلة الشئون السوفييتية وعن الاستاذ العدوى ومشاهداته ، يوضح الى أى حد بلغوا فى تنفيذ هذا المشروع ، وعلى أشلاء الضحايا من المسلمين ، الذين لم ينظروا الى هذا المشروع نظرة الرضاء والاعجاب ، بلغوا ما بلغوا .

ويقول مولوتوف فى خطبة له : « لن تنتشر الشيوعية فى الشرق ، الا اذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز ، والا اذا قضينا على الاسلام » !!

يقصد بذلك هدم الكعبة التى يطوف بها المسلمون فى حجهم ،

---

(١) مجلة الشئون السوفيتية العدد السابق

أو الحيلولة بينهم وبين تقديسها ، والطواف بها وذلك بهدم الدين في نفوسهم ، والمسلمون لايعبدونها كما يقول ، ولكنهم يطوفون بها ويتجهون اليها فى صلاتهم ، فهى رمز لاتحاد وجهات المسلمين.

واذاعت وكالة تاس السوفييتية للانباء ، عندما نجح الروس — مع العلماء الالمان الذين أكرموهم بعدما أسروهم ، واستغلوا علمهم وعبقريتهم — فى صنع القمر الروسى واطلاقه ، أذاعت أن المهنئين توافدوا على خروشيشتوف يهنئونه بهذا النجاح ، فقام يشكرهم ، وقال : لو كان لله وجود لشكرته أيضا !!

ولعله لم يغب عن بالنا تلك «الكراسة الرمادية » التى نشرها الشيوعيون فى العراق ، وفيها ما فيها من تهجم على الاسلام ، وتزوير لتاريخه ، ومحاولات جنونية لتحقيره فى نفوس الناس ، وقد كانت هذه الكراسة الملعونة التى نشرتها « أخبار اليوم » فى تاريخ ١٩٥٩/١٠/٣ م سببا فى اثارة السخط العام فى العراق ، وفى قيام ثورة الموصل ، بقيادة الزعيم البطل الشهيد «الشواف» وزملائه الاحرار ، الغير على دينهم وقوميتهم ، لقد صرخ الشهيد « الطبقجلى » فى وجه « المهداوى » وهو يحاكمه ، وقال له : ان الكراسة الرمادية هى سر ثورة الموصل ، لقد وزع الشيوعيون كراسة تشكك فى وجود الله ، وفى العقائد الدينية ، فبدأت ثورة الموصل ، ان الشيوعيون كانوا يحاربون الدين فى الموصل ، ويعقدون المؤتمرات الشيوعية لهدم الايمان فى نفوس الناس ، ويهاجمون المصلين فى المساجد لمنعهم من الصلاة .

وقالت أخبار اليوم وهى تقدم هذه الكراسة الى القراء :—

« الكراسة الرمادية التى كانت سبب ثورة الموصل ، الكراسة التى تطعن فى وجـود الله ، وفى القرآن ، وفى العقائد الدينيـة ، الكراسة التى قال « الطبقجلى » فى محكمة المهداوى ، انها سر

ثورة الموصل ، الكراسة التى قدمتهـا سفارة الصين فى بغداد للشيوعيين ، ووزعوها فى الموصل ، وأثارت الجيش العراقى ، ان « قاسم » وافق على توزيع الكراسة الوقحة ، وعارض الشواف ، والطبقجلى ، ورفعت الحاج سرى ، وزملاؤهم الاحرار هذا الاعتداء الوقح على الاسلام .

ان « أخبار اليوم » تنشر اليوم هذه الكراسة كاملة ، ليعرف العالم كله كيف تهاجم الشيوعية الدين ، وكيف تنكر وجود الله وكيف تفترى على كتاب الله » .

« هذه الكراسة ، هى التى سمح « قاسم » بتوزيعها ، بينما أمر باغلاق ثلاث صحف قومية ، جريمتها الوحيدة ، أنها تهـاجم الشيوعية ، وتهاجم الالحاد » .

« أن من حق شعوب آسيا وأفريقيا ، أن تعرف الشيوعيين على حقيقتهم ، أن تعلم أن مهمتهم الاولى هـدم الدين ، وهـدم القومية ، وهدم الاستقلال ، وبذلك يستطيعون أن يرفعوا أعلامهم الحمراء فوق رءوسنا المنكسة ، وأن يدخلونا فى قفص العبودية ، والذل والعدم » .

« أن ناقل الكفر ليس كافرا ، واننا ننقل هـذه الكراسة ، ليعرف الشعب العربى أية مؤامرة يدبرها الشيوعيون ضد وطننا ، وضد ديننا ، وضد عقائدنا » .

« ولكن الأمة العربيـة لن تموت ، والدين لن يقضى عليـه ، والقومية لن تداس بالاقدام »

وكانت هـذه الكراسة ، وما جرى لاخواننا فى العراق ، أسوأ نذير استطاع الشيوعيون أنفسهم أن يقدموه للمسـلمين فى كل مكان تمتد اليه أيديهم وسيطرتهم .

وقد احتككت بشيوعيين مصريين مسلمين ، فى ظرف اجبارى خاص ، اضطرنى للبقاء معهم مدة طويلة ، كنا نجتمع معا بين حين وآخر ، فأحرص على تحريضهم على الكلام — وما كانوا فى حاجة الى تحريض — فقد كانوا ثرثارين مع كل من حولهم ، حتى اذا حضرت أمسكوا ، واقتصدوا فى الكلام ، وكانوا من طبقات مختلفة، فيهم العامل والموظف ، والفلاح ، والجامعى ، والصحفى ، والطالب، كان فيهم المتبحر فى شيوعيته ، والوسط والببغاء ، ولكنهم كانوا جميعا صوتا واحدا فى انكار الاله ، ويتشدقون بأن أصل الانسان قرد ، ثم تطور ، وان العالم كله خلق هكذا ، عن طريق التطور ، وكان فى مقدمتهم مسلمون مثقفون ثقافة جامعية .

سألت أحدهم : كم قرأت من الكتب الشيوعية ؟ قال : خمسة وثلاثين كتابا من أمهات الكتب ، آتى وصلتنى من وسط أوربا !! قلت له : وكم قرأت عن الاسلام ؟ فقال : لم أقرأ شيئا !! ، ورأيت الفرصة سانحة ، لكى أحدثه عن الاسلام ، من الناحية الاجتماعية ، التى يروق له الحديث عنها ، وكان يفتح فمه دهشة ، كلما حدثته عن أحد الانظمة الاسلامية ، مقارنا بينها وبين الانظمة الشيوعية ، وظللت أحدثه — وكان حقا شابا هادئا — حتى بدأ منه الاقتناع ، وقام وتوضأ ولازمنا فى الصلاة .

وسرنى منه هذا التحول ، ولكن اخوانه الآخرين غضبوا وثاروا ، ورأوا فى صلاته ردة منه عن شيوعيته ، وفترت العلاقات بينهم وبينه ، وصدرت اليهم التعليمات من كبيرهم — وكان صحفيا — أن يبتعدوا عنى ولا يجالسونى ، وكانت تجربة ، لمست فيها مقدار الهوة التى يتردى فيها كل شيوعى ، حين ينسلخ عن دينه وعقيدته فى سبيل شيوعيته ، وعرفت منها أنه من المحال على الشيوعى أن يكون مؤمنا بدين ، وطبقت هذا الواقع الملموس امامى ، من هذه القطعان البشرية الضالة ،

على ما يقوله زعماء الشيوعية عن الاديان ، وعن انكار وجود الله ، وعن خلق العالم بالتطور ، فوجدتهم ببغاوات ، تردد أقـــوال هؤلاء الزعماء ، أو شريطا مسجلا لا عقل له ، يحكى ما قالوه من الالحاد ، والمادية فى العالم .

ومع كفرهم بالاديان يكفرون بأوطانهم ، ويدوسون مصـــالحه تحت أقدامهم فى سبيل شيوعيتهم واخلاصهم للأم «موسكو» !!

وللشيوعية كتب ومناهج مدروسة على أسس من علم النفس والمنطق ، ولهم تفسيرات لحوادث العالم ، على أســـــاس مادى اقتصادى تجوز على كثيرين ، وخصوصا من لم يتسلحوا بسلاح الدين ، ويتحصنوا بالمصل الواقى من أوبئة الأفكار الشيوعية الملحدة ، وهم يستغلون كل عوامل السخط فى النفس ، ليصلوا الى قرارها ، ومن أجل هذا نراها تروج فى أوساط العمـــــال المضطهدين ، والطبقات المظلومة ، والشعوب التى تحكم حكما فاسدا ، تروج برغم أنف القانون والقوة ، لأن عوامل انتشارها موجودة فى السخط ، الذى يعتبر أخصب أرض لنموها .

وقد تسلم الشيوعيون الحكم فى بلاد ، كانت عريقة فى المسيحية حامية لها ، وبلاد أخرى عريقة فى الاسلام ، فركزوا اهتمامهم فى اجتثاث الدين من الجيل الجديد ، لأنهم يعلمون مدى الصعوبة فى اجتثاثه من الكبار ، الذين تربوا فى أحضان المســــيحية أو الاسلام . .

ومن هنا نراهم وضعوا المناهج للمـــدارس ، على نمط يتفق وأفكار الشيوعية ، ووجهوا كل أجهزة الدولة وأنظمتها ، لخدمة هذه الأفكار ، حتى ينشأ الطفل فى جو شيوعى محض ، بعيدا عن كل ماله صلة بالدين ، بل نراهم يتخذون من أساليب التربيــة

ما يستل من نفوس الأطفال الصغار ، فكرة الله أو الدين ، التى ربما يكون قد سمعها فى البيت من أبويه ، ولا سيما فى المنـاطق الاسلامية .

فهم اذا حان وقت الطعام فى مدارس الاطفال ، واشتد بهـم الجوع ، يأخذ المدرسون فى تنفيذ الخطة الموضوعة ، لانتزاع معنى الألوهية من نفوس الأطفال فيقولون لهم : هل سمعتم أنه يوجد اله؟ فيجيبون نعم . فيقولون لهم : يقال ان هذا الأله هو الذى يرزق الناس ويطعمهم ، فهيا اطلبوا منه أن يطعمكم ، وتضرعوا اليه ، واجثـوا على ركبكم ، وسلوه ما تريدون ، حتى يعطيكم ما يسد جوعكم . فيأخذ الأولاد البرآء فى التضرع والطلب : يا الله أعطنا . . ارزقنا ؛ فنحن جائعون ... الخ . ويتركونهم مدة على هذه الحالة ، حتى يتعب الأولاد ، ويزدادوا جوعا ، والسماء لا تمطر عليهم الطعام الذى يريدونه ، وتقدمه لهم فى أطباق ، وحينئذ ييأس الاولاد ، ويزداد تلهفهم على الطعام ، ويتلفتون الى مدرسيهم الموكلين بهذه المهمة .

وهنا يجدون الجو قد تهيأ لغرس فكرتهم فى نفوس الاطفـال الابرياء ، فيتقدمون لهم ويقولون : لقد طلبتم من الله الذى قلتم عنه انه موجود أن يعطيكم الطعام ، وأنتم جائعون . فلم تحصلوا على شيء ، ولو كان موجوداً لرق لحالكم ، ورحمكم من هذا الجوع ، فهيا أطلبوا من « ستالين » وقولوا : أعطنا الطعام ياستالين فنحن جوعى ، فيسرع الاطفال فى الطلب ، وهنا يسرع الخدم فى تقـديم الطعام الشهى ، والشيكولاتة اللذيذة لهم فيأكلون ، بعد أن كادوا يموتون من شدة الجوع ، والاولاد لايفهمون الا لغة البطون .

وفى هذه اللحظة يتقدم المدرسون ، ويقولون لهم : ان وجود الله خـــرافة ، فلا تصـــدقوا ما تســـمعونه من آبائكم . اذ لو كان

موجودا لاعطاكم ، ولما تركتم تجوعون ، وأنتم ترجونه ، وتتضرعون اليه ، ولكن أنظروا حين طلبتم من ستالين . دعوتموه مرة ، فاستجاب لكم ، وأعطاكم فوق ماتطلبون . فهو اذن الجدير بالتعظيم والتقدير والتقديس !!

وهذه الواقعة تتفق تماما مع مبادئهم وفكرتهم ، ولا غرابة فى أن يتخذوا من الاساليب مايصل بهم الى غرضهم من غرس هذه المبادىء فى نفوس الصغار ، حتى يصنعوهم كما يريدون .

والاله كما قالوا خرافة .. وهو من صنع الناس وخلقهم ، وهم فى هذا يصنعون من ستالين الها !! وعندما عرض الفيلم الروسى (سقوط برلين)، كان يظهر فيه أحيانا الجيش الروسى فى ميادين الحرب ، وأفراده يتضرعون الى « ستالين » ، ويدعون : انصرنا يا ستالين ، لن ننهزم مادام ستالين معنا (١) ، وهذا يؤيد ماقيل من اتخاذ المنهج الدراسى السابق للاطفال ، ، ويتفق معه .

وهل هناك داع لتأييد هذه الوقائع بأدلة ؟ أو هل هناك مبرر للشك فيها ؟ انها تتمشى مع أفكارهم التى يجهرون بها ويتفاخرون. وليس هؤلاء الجنود الا من صنع هذه المدارس ، تربوا فيها على انكار الله وتأليه زعماء الشيوعية ، وعلى رأسهم ستالين ! ولذلك كان وقع النقد الذى وجه اليه بعد موته شديدا عليهم أو قل انه كان صدمة لهم ، وللآن وبرغم الهجمات التى انصبت على أعماله بعد موته ، من زعماء الشيوعية الموجودين ، فانهم لم يستطيعوا أن يمسوا تماثيله أو مقبرته بشىء ، ولا زالت مقصد الشعب فى كل وقت ، يتزاحمون حولها وكأنهم يحجون الى قديس .

---

(١) هذه الواقعة والتى قبلها من كتاب الشيوعية والاسلام للاستاذين عباس العقاد وعبد الغفور عطار .

واذا كانت الدولة الشيوعية قد نجحت فى فرض مبادئها اللادينية على شعبها ، وبذلت فى سبيل ذلك مابذلت من جهد ومال وارهاب ، ذهب ضحيته مئات الآلاف من الناس هناك ، فانه مما لاشك فيه أن الدولة لو منعت سياطها .. وكفت عن ارهابها ، وتركت للناس حرية التدين ، دون أن يؤثر ذلك على مستقبلهم ، وحياتهم المالية، وقبولهم فى وظائف الدولة ، لعـــاد الناس الى طبيعتهم وحالتهم الأولى ، ووجدنا الشعب الروسى من أسبق الشعوب الى رحاب الدين ...

الله والعلم

ان التدين أمر طبيعى فى النفوس ، ومهما بالغ الشيوعيون فى حربه ، وانتزاعه من النفـــوس كما ينتزعون الاملاك من ملاكها ، فسترجع النفوس الى طبيعتها الاولى فى يوم من الايام .

واذا كانوا يتبجحون ، ويعلنون أن العلم يعارض الدين ويحاربه ، وانهم يسلطون على الدين سلاح العلم ، فقد حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء ، وقد وهموا وخدعوا أنفسهم ، وحاولوا خداع الناس، فالعلم الصحيح لا يمكن بحال من الاحوال أن يكون معارضا للاسلام، لان الاسلام يعتز بالعقل وبالعلم ، وكل تفكير صـــحيح يتلاقى فى نهايته مع الاسلام ، ويعترف بوجود الخالق المبدع .. والمفـكرون الذين أعلنوا تمردهم على الخالق قد اغتروا بالظاهر ، ووقفـوا عندها ، ولم يستطيعوا أن ينفذوا الى ماوراءها ..

بينما كان هناك علماء فطاحل ، ثبتوا وواصلوا دراساتهم ، ووصلوا بتفكيرهم الســـــليم ، ومنطقهم العلمى الصحيح الى الله الخالق المبدع ، وهم جمهرة من العلماء ، كانوا كلما ازدادوا علما ازدادوا قربا الى الله وبقينا به .

يقول المشير أحمد عزت باشا التركى فى كتابه «الدين والعلم»(١):
« وخليق بالذكر أنه كما اتسع نطاق العلوم ، وانكشفت دقائق الطبيعة وأسرارها ، فقـــدت فلسفة الماديين مكانتها ، وهؤلاء رجال العلم ، الذين خدموا الانســـــانية بكشوفهم العلمية أكبر

---

(١) ألفه بالتركية وترجمه وشارك فى تصحيحه ومراجعته الاستاذ حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بالجامعة والمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام . ص ١٤

الخدمات ، من أمثال «نيوتن» ، و«باستور» وغيرهما من مشاهير الحكماء يعتقدون جميعا ، ويؤمنون بقوة خالقة . مدركة متعالية عن ادراك البشر ، أو يعتقدون أن للخلقة سرا لايدرك ، ويعربون عن ذلك المعنى بعينه . »

« وهذه الكلمة التى قالها « هرشل » من مشاهير الحكماء فى القرن الثامن عشر ، من تلك الكلمات التى تزداد قوة على مر الزمان :ـ « انه كلما اتسع نطاق العلوم ، تحققت وكثرت الادلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة ، وعلماء الارضيات والهيئة والطبيعيات والرياضيات ، يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل مايلزم لانشاء معبد العلوم ، اعلاء لكلمة الخالق » .

ويقول أفلاطون مدونا رأى أستاذه سقراط ومقررا له (١) :ـ

«هذا العالم الذى يظهر لنا على هذا النحو ، لم يترك فيه شيء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها ، وهكذا يتم الوصول الى غاية نهائية منفردة وحيدة .

« من أين نشأ هذا النظام الكامل فى تفرعاته ، المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه ؟ ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة ، فلو أمكننا أن نقول انه نشأ من تلقاء نفسه لصح لنا أن نقول ان ألواح «بوليكلت Polyclete » و « زويكسيس Zeuxis » حدثت من تلقاء نفسها ، واذا مانظرنا الى أن العناصر التى تحتوى عليها الكائنات كثيرة ، الى درجة لايمكن أن يحصرها العقل ، كان من المحال أن نحمل وجود كل ذلك على المصادفة ، فلابد اذن من وجود عقل أعلى ، وهو الصانع الوحيد ، لان الطبيعة أثر تجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع ، الذى ينفذ حكمه كنفوذ

---

(١) ص ١٥ المصدر السابق

الفكر فى الحال بدون أى خطأ . وهو حاضر غالب (فى العقائد الاسلامية : عالم قادر) . ومع هذا فمن المستحيل ادراكه بالحواس، فهو كالشمس التى تمس جميع الابصار ، لكنها لاتبيح لاحد أن ينظر اليها » .

ويقول « لابلاس » المعتبر من أكابر الحكماء فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، والمعدود من شيوخ الرياضيين والفلكيين خاصة ، يقول بعد ايضاح مجموعة الشمس (٢) :ـ

« ان النظام المحير للعقول ، المشاهد فى حركات الاجرام ، التى تتألف منها المجموعة الشمسية ، لايمكن أن يحمل على التصادف ، بل التصادف كلمة لايصح النطق بها فى لغة العلم ، ان التصادف معدوم ، ومحال فى هذا العالم الذى ترى فيه كل شىء خاضعا لقوانين الموازنة ، وقوانين الحساب التى عينتها ارادة غيبية ، وحكمة بالغة ، وما الشىء الذى ندعوه التصادف الا محصل القوات الغيبية ، التى لانعلم عن صورة تأثيرها شيئا ، بل لانعلم عن وجودها شيئا ، فى حين أنها تحفل حولنا ، وبناء عليه ، ليس من الممكن حمل هذا النظام الذى نراه فى المجموعة الشمسية على التصادف ، ولابد من الاعتراف بوجود سبب أصلى عام منظم لهذا النظام » .

«إن اعتبار هذا النظام من آثار التصادف لايصح أن يقال الا بنسبة واحد فى أربعة تريليونات ، فاذا كان احتمال التصادف مستبعدا الى هذه الدرجة ، وجب الاعتراف بأن كون الخلقة تحت تأثير التدبير والارادة ، على نسبة أربعة تريليونات من الاحتمالات الى واحد ، وأقرب العلوم اليقين علم الرياضة ، فان لم يعتمد عليه لم يكن مجال للشروع فى البحث » .

---

(٢) المصدر السابق .

وقد جاء فى مقدمة كتاب « العلم يدعو للايمان » تلك المقدمة التى كتبها المترجم الاستاذ محمود الفلكى والتى يقول فيها :ـ

« وكان العهد بدعاة الالحاد أن يحتجوا لدعوتهم بأدلة يحسبونها علمية ، حتى لقد ظن البعض أن العلم والايمان نقيضان لايجتمعان بل ألف أحد العلماء الغربيين ، وهو « جوليان هكسلى » كتابا فى ذلك سماه « الانسان يقوم وحده » Man Stand Alone زعم فيه أن العلم ينكر وجود الله » .

« ولكن هاهو ذا عالم من أكبر العلماء الامريكيين ، وقد شغل حينا مركز رئيس المجمع العلمى فى أمريكا ، قد تصــدى له وردّ عليه ، وبين له وللناس جميعا أن العلم الحديث يثبت وجود الله ، وينتهى الى الايمان به ، وبوحدانيته بما لايحتمل الشك أو الجدل »

« وقد سمى كتابه « الانسان لايقوم وحده »
Man Does Not Stand Alone
وأثبت فيه بمختلف العلوم أن الله بارىء الكون وهو خالق كل شىء .

« لذلك وحده عنيت بترجمة هذا الكتاب لعله ينتشر بين قراء العربية ، كما انتشر فى أمريكا ، حيث كان له أثر كبير فى صــد موجة الالحاد ، وتثبيت قوة اليقين » .

« وقد وجدت كثيراً من آيات القرآن تؤيد ماذهب اليه المؤلف فوضعتها فى مواضعها من فصول الكتاب .

وجاء فى مقدمة مؤلف هذا الكتاب « ا . كريسى مورسيون »مايلى:

« وغرضى من تأليف هذا الكتاب ، هو أن أسترعى انتباه المفكرين الى الحقــائق ، التى صار ممكنا اثباتهــا ، والتى ترمى الى تأييد الاعتقاد بذلك التنظيم ، وتدل على الغاية منها » .

« ان وجود الخالق تدل عليــــه تنظيمات لا نهاية لها ؛ تكون الحياة بدونها مستحيلة ، وان وجود الانسان على ظهر الارض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، انما هى جزء من برنامج ينفـــذه بارىء الكون » .

وقد سرد المؤلف كثيرا من الحقائق العلمية ، التى توصل العلماء اليها فى الكون المحيط بهم ، ولما يأتهم تأويل كل شىء ، ومن هذه الحقائق ، يمكن أن نصل الى وجود منظم أعلى لهذه التنظيمات التى لا يمكن أن تكون قد حصلت بمحض المصادفة وحدها ..

وأكتفى هنا من هذه الحقائق بهذا الفرض الذى بدأ به كلامه ؛ ليبين لك استحالة قيام هذا العالم وتنظيمه بمحض المصادفة : —

« خذ عشرة بنسات : كلا منها على حدة ، وضع عليها أرقاما مسلسلة ، من ١ الى ١٠ ، ثم ضعها فى جيبك ، وهزها هزا شديدا ، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من ١ الى ١٠

ان فرصة سحب البنس رقم ١ هى بنســـبة ١ الى ١٠ ، وفرصة سحب رقم ١ ورقم ٢ متتابعين هى بنسة ١ الى ١٠٠ (١٠×١٠) ، وفرصة سحب البنسات التى عليها أرقام ١ ، ٢ ، ٣ متتالية ، هى بنسبة ١ الى ١٠٠٠ (١٠×١٠٠) ، وفرصة سحب ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ متتالية هى بنسبة ١ الى ١٠٠٠٠ (١٠×١٠٠٠) ، وهكذا ، حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الاول من ١ الى ١٠ هى بنسبة ١ الى ١٠ بلايين »

« والغرض من هذا المثل البسـيط ، هو أن نبين لك كيف تتكاثر الاعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولا بد للحياة فوق أرضــنا هذه من شروط جوهرية عديدة ، بحيث يصبح من المحال حسابيا أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة ، بمجرد المصادفة على أى أرض ، فى أى وقت . لذلك لابد أن يكون فى الطبيعة نوع من التوجيــــه الســـديد ، واذا كان هـــذا صحيحا ، فلا بد أن يكون هناك هدف » . اهـ

التطور لا ينافي وجود الله

ومن بالغ العجب أن نرى الماديين الملحدين يقفزون من القول بتطور الكائنات ، من الخليقة الأولى الى انكارهم لوجود الله !!

ان القول بالتطور فى حد ذاته ، لا ينافى فكرة وجود الله ، فان الباحث المنصف يستطيع أن يلمس قدرة الله وتدبيره ، وراء كل تطور اذ أن هذا التطور يسير حسب نظم متقنة ، وأسباب محتمة، لا يمكن القول بوجودها بطريق الصدفة ..

ولقد سئل السيد جمال الدين الافغانى عن قول أبى العـلاء المعرى :

والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

هل يقصد المعرى فى هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد ، ويوافق مذهب «درون» فى النشوء والارتقاء ؟ أم قصـد المعرى معنى آخر ، وتشابه اتفاقا أو عرضـا ، مع أهل مذهب النشوء والارتقاء ؟

فقال السيد/ لا أغالى ، ولا أبالغ اذا قلت : ليس على سطح الارض شىء جديد بالجواهر والاصول ، ثم قال :أما مقصـد أبى العلاء فظاهرواضح ، ليس فيه خفاء ، فهو يقصد النشوء والارتقاء ، أخذا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب ؛ اذ قال أبوبكر بن بشرون فى رسالته لابى السمح عرضا فى بحث الكيمياء : ان التراب يستحيل نباتا ، والنبات يستحيل حيوانا : وان أرفع

المواليد هو الانسان «الحيوان» ، وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها ، وان أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات — وهى أدنى طبقات الحيوان — سلسلة عند الانسان . الخ .»

« فاذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الاساس ، فالسابق فيه علماء العرب ، وليس (درون) » .

ثم قال : وبالاختصار ان كل ماجاء فى منطق الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة ، وتفرع الكثير منها وعنها ، كل هـــذا امر لايضر التسليم به ، كما أنه لايفيدهم أن الحياة وظهور الاحياء نتيجة طبيعية لقوى طبيعية . نعم اذا أمكنهم اثبات التولد الذاتى ، كان لأقوالهم معنى ، ولمذهبهم مستندا »(١)

على أننا اذا تركنا هذا أمكن أن تمسك بخناق هؤلاء ، وتسألهم عمن أوجد الخلية الاولى ، ووضع فيها الخصائص ، التى جعلتها تتحول وتتطور ، هذه التطورات المتعـــددة الاشكال ، والانواع والاوصاف والخصائص ؟ .

ولعل الذين لم ينكروا وجود «سر» وراء هـــذه الخلية ، من العلماء الطبيعيين ، كانوا أقرب الى المنطق من هؤلاء الذين عاندوا، وأنكروا وجود الله ، وان كنت أعتقد أن الذين وقفوا عند كلمة « سر » لم يكونوا منصفين تماما ؛ اذ لو أنصفوا لأعلنوها صراحة ، وأفصحوا أن هذا السر هو الله القوى القادر .

فهذا عالم من العلماء الأمريكان القائلين بالتطور كما يقول درون يقول فى كتابه « سير التطور البشرى » : (٢)

---

(١) من كتاب «خطرات الأفغانى » تاليف محمد باشا المخزومى بتصرف من صفحة ١٨١ وما بعدها .

(٢) من كتاب الدين والعلم ص ٢٠٨

« ان تطور الانسان من غير استمداد من قوة معنوية ، وتقدمه فى الطريق المرسوم الرقى من الحيوانية الى الانسانية يستحيل كما يستحيل فى مطبعة جمع كتاب من تمثيليات شكسبير ، بالقاء الحروف كيفما اتفق بدون تفكير ، وليس من شك فى أن التطور أوجد الانسان ، لامن المصادفات البحتة ، بل هو تطور كانت فيه من أوله الى آخره يد الله القادر المتعال .

فهذا العالم يقول بالتطور ولكنه لم ينكر وجود الله وراء هذا التطور ، ونحن يهمنا منه اعترافه بوجود الله وراء التطور الذى يقولون به ، وان كنا لانوافقه على أن التطور هو الذى أوجد الانسان .

ويقول صاحب كتاب « الدين والعلم »(١) : —

« وهذا الفيلسوف « سبنسر » الذى أكمل نظرية التطور ، وان لم يضعها ، مع أنه لم يكن معدودا من المتدينين ، كان يعتقد أن الخلية سرا مطلقا لانهائيا ، وحيدا متعاليا عن الادراك ، وأن هذا السر الأعظم من شأنه أن يرسل من يعمل على اصلاح العالم » .

ويقول قبل ذلك (٢) » : —

« كان «نيوتن» ، وهو من أكبر الرياضيين والفلكيين وأشهرهم، من المعتقدين بالله ، بل كان من الزهاد المتقين ، ومن المتواتر أن «دارون» الذى يعد من مبدعى فلسفة التطور ، كان يستشير أحد الرهبان الانجليكان من أصحابه ، قبل أن يقرر آراءه ونظرياته عن جهة موافقاتها للعقائد الدينية » .

---

(١) ص ٣٤

(٢) ص ٣٣ المصدر السابق

بل وأكثر من هذا رأيت للسيد جمال الدين الأفغانى كلاما عن «درون» أحب أن أضعه أمامك هنا . قال بعد أن تحدث عن العلماء الطبيعيين الذين جاءوا بعد «درون» وساروا على مذهبه . —

« ولكى يتوصلوا الى جحود خلق الانسان ، بتقويمه الحسن هذا ، رأيناهم يركضون وراء الأحافير ، ويغوصون فى طبقات الأرض » .

وامامهم فى مذهب النشوء والارتقاء هو «درون» بلا شك ، وهذا الحكيم لما وصل الى النقطة الجوهرية ، وهى موجد نسمة الحياة، لم يسعه الا أن قال :

«ان الخالق هو الذى نفخ نسمة الحياة فى الأحياء » وهذا قوله بالنص : —

«انى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه الارض جميعها ، من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة »

« ان قول «درون» هذا ينفى ظهور الحياة على سبيل طبيعى ، ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين ، وأنكروا على «درون» هذا القول ، واتهموه بالخوف من أهل دينه ، وقالوا ان قوله هذا يجعل المذهب ناقصا ، بل ينتقضه من أساسه ، لان الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين . انكار الخالق ، واسناد الاعمال الى الطبيعة .

« هذا مقام الحيرة لمريدى مذهب «درون» : فأما أن يكون امام مذهبهم «درون» قال قوله السابق عن علم وتحقيق ، وفيه — كما قالوا — نقض لاساس المذهب ، واما أن يكون الخوف الذى اتهموه به من أهل الأديان ، حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين .

« وبالنتيجة يريد الدكتور شميل« وكان من أكبر مناصرى درون وناشرى مذهبه) والاستاذ «برن» وغيرهما ، أن يوافقوا «درون» اذا أصر على انكار الخالق ، ويخالفوه اذا أقر بوجوده »(١) اه !!

ولعل من اللطيف بعد هذا العرض أن أنقل احـــدى الروائع النثرية لشوقى عليه رحمة الله ، جاءت فى مقدمة روائعه فى كتابه «أسواق الذهب» ، وهى التىعنونها هـــذا العنوان «الحقيقة الواحدة » وهى حقيقة وجود الله ، طارد فيها هؤلاء الملاحـــدة ومتابعيهم بسرد الكثير من مظاهر قدرة الخالق وابداعها ، بأسلوبه الجزل الساحر ، رحمه الله وجزاه خيرا .. يقول :ـ

« يامتابع الملاحدة ، مشايع العصبة الجاحدة ، منكر الحقيقة الواحدة : مالِلأعمى والمرآة ، ومالِلمقعد والمرقأة(٢) ، ومالك والبحث عن الله ؟

قم الى السماء تقص النظـــر ، وقص الأثر ، واجمع الخُبر والخبر ، كيف ترى ائتلاف الفلك ، واختلاف النور والحلك : وهذا الهواء المشترك ، وكيف ترى الطير تحسبه ترك ، وهو فى شرك ، استهدف فما نجا حتى هلك ، تعالى الله ، دل الملك على الملك .

وقف بالأرض سلها : من زم السحاب وأجراها ، ورحل الرياح وعراها (٣) ، ومن أقعد الجبال ، وأنهض ذراها ، ومن الذى يحل حباها (٤) فتخر له فى غد جباها ؟ أليس الذى بدأها غبرات ، ثم جمعها صخرات ، ثم فرقها مشمخرات (٥) ثم سل النمل : من

---

(١) من خطرات الأفغانى ص ١٨٤ ، ١٨٥

(٢) المقعد : العاجز عن المشى ، والمرقأة : السلم

(٣) أنزلها للمسير وجردها مما فيها من أمطار

(٤) أرسى الجبال ورفع قممها

(٥) وزعها فى الارض عاليات

أدقها خلقا ، وملأها خلقا ، وسلكها طرقا (١) ، تبتغي رزقا ؟ وسل النحل : من ألبسها الحبر ، وقلدها الأبر (٢) ، وأطعمها صفو للزهر ، وسخرها طاهية للبشر (٣) ؟

لقد نبذت الذلول المسعفة (٤) ، وأخذت في معامي الفلسفة، على عشواء من الضلال معسفة(٥) . أولا ، فخبرني: الطبيعة من طبعها، والنظم المتقادمة من وضعها ، والحياة الصانعة من صنعها ، والحركة الدافعة من الذي دفعها ؟؟ .

عرفنا كما عرفت المادة ، ولكن هدينا وضللت الجادة ، وقلنا مثلك بالهيولى (٦) ، ولكن لم نجحد اليد الطولى ، ولا أنكرنا الحقيقة الأولى . أتينا العناصر عن عنصرها (٧) ، ورددنا الجواهر الى جوهرها ، اطرحنا فاسترحنا (٨) وسلمنا فسلمنا ، وآمنا فأمنا ، وما الفرق بيننا وبينك الا أنك قد عجزت فقلت : سر من الاسرار ، وعجزنا نحن فقلنا : الله وراء كل ستار » اهـ

بمثل هذا الاسلوب الأدبي ، وهذا الشعر المنثور ، ناقش شوقي هؤلاء الجاحدين الماديين ، وعرض أمامهم بعض مظاهر القدرة التي

---

(١) جعل لها طرقا تسلكها

(٢) المراد ألوانها وأنها تلسع من اعتدى عليها

(٣) تخرج لهم عسلا

(٤) يخاطب الجاحد بأنه نبذ الشريعة التي تنقذ الانسان باليقين والاطمئنان.

(٥) تسير على غير هدى متخبطة في الضلال

(٦) الهيولى مادة . وشبه الأوائل طينة العالم بها

(٧) أى بحثنا فيها من أولها وخالقها .

(٨) آمننا بالله وفوضنا له الامر فيما لا نعرفه فكان ذلك سبب راحتنا واطمئناننا

لو تأملوا فيها بأنصاف لوصلوا الى كنه الحقيقة ، وعرفوا الله جل جلاله .. واستراحوا ..

يقول « تولستوى » الفيلسوف الروسى الكبير ، وهو يحدثنا عن شروده وقلقه فى ظلام الشك ، ثم عن اطمئنانه حينما عرف الطريق الى الله .. يقول : —

« لقد نبذت تلك العقائد — يريد العقائد الدينية — فى أول الأمر ، ووجدتها عديمة المعنى ، ثم قبلتها الآن وألفيتها مايئة بالمعانى ، ذلك لأنى كنت مخطئا ، وأدركت سبب الخطأ ، وهذا السبب ليس ناشئا عن تفكيرى السىء فحسب ، بل لأنى عشت فى بيئة سيئة ، وذلك أشد السببين خطأ » .

« ما الحياة وما الموت ؟ اننى لا أعيش اذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله ، لقتلت نفسى من زمان بعيد »

« اننى أحيا — حقيقة — حين أحس به ، وأبحث عنه فقط ، ويصيح من داخلى صوت ، يقول : عن أى شىء تبحث بعد هذا ، هذا هو ، انه ذلك الذى لايستطيع المرء بدونه أن يعيش ، انه الله ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال المطلق ، وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة » .

فهذا الذى يقوله الفيلسوف العظيم ، هو أصدق تعبير عن حاجة النفوس الملحة الى الايمان بالله ، وعن السحر العظيم الذى يفعله الايمان بهذه النفوس ، ثم هو أبلغ مقال يصور أدق تصوير ، ماتجيش به نفوس المؤمنين نحو خالقهم ، وخالق الكون : الله ..

فهل يمكن أن ينجح الماديون الملحدون ، ويقتلعوا من النفوس جذور الايمان بالله ؟!

ان من واجب المؤمنين بالاديان على اختلافها ، أن يتضافروا فى

كل مكان ؛ ليصدوا تيار هذه الريح الخبيثة ، لا بالكلام والخطب والكتب فقط ، ولكن بالعمل الصحيح بما توحيه اليـــه أديانهم وشرائعهم ، فان هذا هو الجدار الحصين الذى يصد تيار هــذه الريح الخبيثة .

وهم حينما يفعلون ذلك يخـــدمون أنفسهم ، ويتجاوبون مع مصالحهم ومقدساتهم ، ويلبون نداء الروح فى الانسان ، وينتشلونه من وهدة المادية ، وقلقها وحيرتها ، ويسهل عليهم عملهم وجهادهم أنهم يسايرون طبيعة الانسان ، وحاجته الملحة الى الايمان بأله قوى قادر .

..

هذه الحاجة هى التى لم تستطع الشيوعية بجهازها القوى فى روسيا أن تقضى عليها تماما ، فاضطر الحاكمون المتألهون فى وقت المحنة القوية ، التى اجتاحت روسيا ، ابان الحرب الماضية ، أن يتراجعوا ويعترفوا — ولو أنه اعتراف شكلى — بهـذه الحـاجة ، وجثوا على ركبهم أمام طبيعة التدين، لأن الطبيعة غلابة ، وما كان من السهل على شعب طبع على التدين بالاسلام أو المسيحية ، أن يتنازل عما طبع عليه بسهولة

. . . .

حقيقـــة خاف الـــكبار من البطش بهم ، فأخفوا مظـاهر التـــدين ، وبقى مافى نفوســـهم على ماهــو عليــه ، فالقلب لايمكن أن يتحول مطلقا بالارهاب والتخويف ، وليس فى امكان أحد الاطلاع عليه ، ومعرفة مافيه ، أما الصــغار فقد وضعوا لهم المنهج الذى يصل بهم الى الغاية المنشودة لهم ، ومع ذلك فللنفوس ردة الى طبيعتها مهما أبعدتها عنها ، وكل شىء مصطنع لا يلبث أن ينهار ، متى تعرض لأقل الهزات .

لقد غالى حكام روسيا فى تهجمهم على الاديان ، وسـنوا من القوانين مايعمل على ابادتها ، ونشطت كل أجهزتهم فى المدارس ،

والصحافة ، والاذاعة ، والجمعيات ، والكتب والسينما في حرب الأديان ، وابادة كل من يظهر نحوها ميلا ، ولو طفيفا ، واستغل أعداؤهم هذا الموقف ، فشنعوا عليهم ، وأظهروا بشاعة موقفهم من الدين أمام العالم ..

فلما قامت الحرب الثانية وهجم هتلر بجحافله على روسيا ، وسلط عليهم جهازه القوى فى الدعاية ، وأمسك بتلابيبهم فى موقفهم العدائى من الدين ، واحتضن القسس المبعدين من روسيا ، وأحسوا مع ذلك روح القلق فى الشعب الروسى بسبب هذا الموقف نفسه ، رأوا أنفسهم فى حاجة الى الاستنجاد بالروح الدينية فى شعبهم ، واستغلالها فى الداخل والخارج لكسب الحرب الساخنة والباردة معا ، فأظهروا تسامحا نحو الدين ، وتنازلوا — ولو مؤقتا — عن مبادئهم اللادينية ، أو المعادية للدين ، ان شئنا الدقة فى التعبير .

فرأيناهم يلغون «جمعيات الالحاد ، أو جماعة اللاالهيين» ، التى نشطت نشاطا قويا قبل الحرب بسنوات ، وخصص راديو موسكو ساعة فى برنامجه ، باسم «ساعة المسيحى» ، ورفعت درجة البطريرك الى رتبة رئيس بطاركة ، واستقبله «ستالين» فى الكرملين ، وتأسست فى جميع البلاد الاسلامية ، الداخلة فى الاتحاد السوفيتى ادارات للافتاء ، وأرسلوا المفتى والبطريرك الطواف بأنحاء العالم ، كدعاية حية متنقلة ، عن احترام روسيا للأديان ، وقد رأيت البطريرك حينما زار المرحوم الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى مكتبه بأدارة الأزهر حينذاك ..

وتقدمت الحكومة الروسية خطوة رسمية فى هذا السبيل ، فأعلنت فى أواخر سنة ١٩٤٣ فى بيان لها أنها غيرت سياستها نحو الدين ، وأن الأديان حرة ..

وسمحت بفتح بعض المساجد والكنائس ؛ ليباشر المؤمنـــون عبادتهم فيها .

ورأت أن تستكمل وسائل دعايتها ، فعملت على تأليف وفـــد من المسلمين ، لحج بيت الله الحرام ، ولكن : كم كان عدد هؤلاء؟ انهم كانوا عشرين أحيانا ؛ ولم يرتفع الرقم عن هذا كثيرا . وفى روسيا نحو ثلاثين مليونا من المسلمين ، وقد كانوا يفد منهم الى الحج أربعون ألفا قبل الحكم الروسى ، برغم بعد المسافة ، وصعوبة وسائل المواصلات عما هى عليه الآن !!

ومعهذا فان العدد الضئيل الذى يمر بالقاهرة أحيانا حين ذهابه للحج ، قد أختير بعناية تامة ، ممن يوثق بهمعند الحكام الشيوعيين فكانوا يتحرجون من الكلام ، كأن على وجوههم أقفالا ! وذلك خوفا من البطش بهم حين عودتهم ، اذا تحدثوا حديثا صريحا لا يرضى عنه الحكام .

أشياء كلها مظاهر شكلية ، رأو أن يكملوا بها وسائل دعايتهم ؛ لكسب عواطف الشعوب الاسلامية والمسيحية .

ومع ذلك رأينا كالينين رئيس المجلس الأعلى أثناء الحرب يقول « العلم الشيوعى يعتبر الدين من الخرافات والاباطيل،وهويناضل لتخليص الانسان من الأديان »

ورأينا خروشوف يقف بعد اطلاق القمر الروسى ويقول : لو كان لله وجود لشكرته »

ونرى الشيوعيون فى كل مكان بعد الحرب لا يفترون عن مهاجمة الأديان ، وأقرب شىء وأمسه موقفهم فى العراق .

فهم اذن لم يتنازلوا عن مبادئهم ولكنهم لأمر ما ، وحاجة فى

نفوسهم — اقتضتها ظروف سياسية داخلية وخارجية — أرخوا قبضتهم الاخذة بخناق أهل الاديان ، فيما لا يمس مبادئهم فى الصميم . وفى الوقت الذى يجدون فيه أن هذا التسامح اليسير سيمس مبادئهم ولو من بعيد ، فانهم سيعودون سيرتهم الأولى ..

انهم بلا شك مطمئنون الى أن ماعتدهم من الوسائل الأخرى كفيلة باقصاء الناس عن الدين ..

وقد قرأت فى أخبار اليوم بتاريخ ١٩٥٥/١٠/٨ ما كتبه الأستاذ على أمين ، بعد رحلة صحفية مع اخوانه الصحفيين المصريين الى روسيا ، وتحت عنوان : هذه هى روسيا ، يقول بعد أن تحدث فى صراحة ، عما شاهده من ارتفاع مستوى المعيشة فى الشعب عما كان عليه فى أيام القيصرية : —

« لقد حولت الشيوعية الرجل الروسى من انسان الى آلة لا تكف عن الدوران ، وجردته من ايمانه بالله ورسله ، وأوهمته أن الأنبياء كانوا مجرد فلاسفة شطار ، وأن الذين جاءوا بعدهم استغلوا هذه الفلسفة ، فى امتصاص دماء الفقراء ، واستغلالهم لكسبهم الخاص . واغلقت الدولة الكنائس والمساجد . وألقت برجال الدين فى غياهب السجون ، وبعد ثلاثين سنة فتحت بيوت الله ، وأعلنت أن من حق كل روسى اذا شاء أن يؤمن بالله ورسله ، ولكنها فى نفس الوقت أفهمت الشعب عمليا ، أن أبواب المستقبل لاتفتح الا لمن كان عضوا فى الحزب الشيوعى ، ولا يمكن أن تدخل الحزب الشيوعى الا اذا كنت مؤمنا بالشيوعية ، والشيوعية ليست نظاما ، وانما هى دين ، ولايمكن للانسان أن يؤمن بدينين فى وقت واحد !

فاذا كنت بعد كل هذا تريد أن تتمسك بدينك فلن تموت من

الجوع ، ولن يحرمك أحد من أن تعمل لتأكل ، ولكن اذا أردت أن تعمل لتعيش فى مستوى أعلى من مستواك ، وأن تتمنع بالحياة فيجب أن تكون جديرا بعضوية الحزب ، وعضوية الحـــزب مقصورة على المؤمنين بكارل ماركس ولينين لا المؤمنين بالله .

ومنعت الدولة تدريس الدين فى المدارس ، فاذا قيل لك ان فى روسيا ٣٠ مليونا مسلما روسيا ، فليس معنى هذا أن فى روسيا مسلما واحدا ، وكذلك بالنسبة اليهود والمسيحيين .

ان فى روسيا ملايين يحملون أسماء مســـلمة ومســـيحية ويهودية ، ولكنهم فى الوقت نفسه لايؤمنون بالاسلام، ولابالمسيحية، ولا بدين موسى ، فكل هؤلاء يريدون أن يعيشوا ، وأن يرفعـــوا مستواهم فى الحياة ، واذا قالت بعد ذلك أنها لاتمنع المؤمنين من دخول بيت الله ، ولا تضطهدهم ولا تحاربهم فهى لا تكذب ، ولا تخادع ، ففى استطاعة كل روسى الآن أن يؤمن بالله ، وأن يؤمن برسله ويتردد على بيوت الله ولكن ليس من السهل أن تجد الرجل المؤمن ، بعد أن زرعت الشكوك فى قلبه ، وهو طفل صغير ، وأوهمته بأن الله لاوجود له ، وأنه مجرد خديعة ، اخترعها رجال الدين ، ولذلك فان بيوت الله تكاد تكون خالية من المصلين ، أن الذين يترددون عليها هم الذين بلغوا الستين ، ويئسوا من العثور على الجنة فى الأرض ، فراحوا يبحثون عنها فى السماء » .

ومع هذا ، فمن الحق أن نقـــول : اننا حين نتحـــدث عن الشيوعية ، يجب أولا أن نعنى أولا وقبل كل شىء بمبادئها ، هذه المبادىء التى لا بد أن يعتنقها كل من أراد أن يكون شيوعيا ، لأن هذا هو المقياس الاصيل عند المتحدثين عن المذاهب والمقارنة بينها ، ويأتى بعـــد ذلك فى المرتبة الثانية الأعمال المنبعثة عن هـــذه المذاهب

فنحن حينما نتحدث عن أعمال دعاة الشيوعية وحكامها ، تلك الأعمال المنبثقة عن مبادئهم ، فأننا نعتمد عليها فى التحدث عن هذه المبادىء ، وأثرها على أهل الأديان ، كأدلة لها قيمتها ووزنها . فاذا رأيناهم يحيدون قليلا عن هذه المبادىء ، فلا بد أن نبحث عن الأسباب التى حملتهم على أن يغيروا خطتهم ، وهى مهما كانت قوية ، فى حملهم على هذا التغيير ، فلا يمكن أن نعتبرها الا عرضا من الأعراض المحلية أو الوقتية يمكن أن يزول بزوال أسبابه ، وتبقى المبادىء تعمل عملها .

فمن العسير علينا اذن ، فى مقام المقارنة والبحث ، أن تجرنا هذه المظاهر ، أو أن نعتبرها تنازلا من الشيوعيين عن مبادئهم ضد الأديان ، لا سيما اذا رأينا كبار زعمائها الآن لازالوا يصرحون علنا بانكار الاله .

ولكن من الممكن أن نقول : ان هذا التحول الظاهرى اليسير نحو الدين — سواء أكان الزعماء مخلصين فيه أم غير مخلصين — دليل قوى على افلاس مذهبهم « لا اله ، والحياة مادة » فى قيادة الشعوب ، دليل على عدم صلاحية أفكارهم فى هذه الناحية — ناحية الدين — ومصادمتها لطبيعة النفوس ، وحاجتها الملحة الى الدين ..

فكيف يجوز لمسلم أو يستساغ منه أن يرتمى فى أحضان الشيوعية ، ويستجيب لاغراءاتها الكاذبة ؟!

الشيوعية والمساواة

ان دعاة الشيوعية يغرون الناس بأنها تعمل على المساواة بين الناس ، ورفع مستوى معيشتهم ، وهى خـــرافة يضللون بها السذج .

فقد وجدناهم فى روسيايتراجعون سريعا أمام ما سموه مساواة، حين وجدوا أن المساواة بين العامل الخامل ، والعامل المجد نتج عنها كساد فى الانتاج ، وأن مبدأهم « من كل حسب قدرته الى كل حسب حاجته » قد فشل ، وأصبحت المصانع تسير بقوة أضعف عامل فيها ، حين عز على العامل المجد المنتج أن يتساوى فى الأجر مع العامل الكسول الضعيف ، بل ربما أخذ هـــذا الضعيف من الأجر أكثر مما يأخذ القوى المنتج ، حينما تكون حاجة الضعيف أكثر من حاجة القوى ، والنتيجة الحتمية لهـــذا المبدأ أن تموت الكفاءات وتنكمش ، ولهذا رأينا ستالين فى مؤتمر عقد سنة ١٩٣١ لرجال المال والاقتصاد ، المشرفين على الانتاج فى البلاد ـ يقول : « ان سير التقدم قد تعثرت خطاه نظرا للطريقة التى يسير عليهـا العمال من اهمال وتكاسل »(١)

ووقف فى سنة ١٩٣٤ يخطب ويقول : « ان هؤلاء القـــوم يحسبون أن الشيوعية تستلزم المساواة فى مطالب العيش ، لكل فرد من أفراد المجتمع !! الا ما أسخفه من رأى ، يخرج عن فكر مهوش شتيت ، ان المساواة التى نادوا بها أضرت صناعتنا أكبر الأضرار » .

---

(١) الشيوعية فى الميزان

وهكذا فشل مبدأ المساواة التامة ، فى أول مجتمع شيوعى ، فشل ؛ لأنه مبدأ يتنافى مع الطبيعة ، يتنافى مع خلقة الله ، الذى خلق الناس متفاوتين فى العقل ، والقوة الجسمية ، ولا يمكن تبعا لهذا أن يسوى بينهم فى مكافآت عملهم ، وأى انسان لا يرضى بهذا ولا يقره ، اللهم الا العجزة «والبلطجية» ، الذين يريدون أن يأكلوا دون أن يعملوا .

ونتيجة لتراجع الشيوعيين فى روسيا ، أصبح أجر العمال متفاوتا ، حسب قدرتهم الانتاجية ، وكان هذا مبدأ للتفاوت الاجتماعى وتكوين الطبقات ، والذين زاروا روسيا رأوا هذا التفاوت الواضح ، وأحسوا ما فيها من طبقات : أناس فى القمة ، وأناس فى الحضيض ، لا سيما بعد أن تراجعت الشيوعية أمام مبدئها ، فى عدم التملك واباحته فى حدود ضيقة ، فأنفق أصحاب المرتبات العالية ، فائض مرتباتهم فى شراء الملابس الفاخرة والسيارة ، والبيت المؤثث الأنيق ، الى غير ذلك ، من وسائل الرفاهية ، التى تميل اليها النفوس بطبيعتها .

فالمساواة التى يتحدث عنها دعاة الشيوعية ويغرون بها البسطاء ، صارت خرافة فى نفس المجتمع الروسى ، الذى أصبح كغيره من المجتمعات — طبقات متفاوتة حسب دخل كل فرد فيه ، وبذلك انتقلت المسألة الى مقارنات نعملها بين الطبقات فى المجتمع الروسى والمجتمعات الأخرى . .

ولا عجب أن تتحطم فكرة الشيوعية فى المساواة التامة لأنها تناقض طبيعة الحياة وتقتل الكفاءات ، وتقضى على التقدم ، الذى يتخذ « بنزينه » من فكرة التنافس بين الأفراد .

***

بقيت معى نقطة أحب أن أوضحها ، وهى أن كثيرا من المسلمين يعتنقون الشيوعية ، ويرون ألا بأس بذلك ولا خطر على عقيدتهم واسلامهم ، بل ربما يذهبون أكثر من ذلك ، وينتزعون من بعض آيات القرآن ، أو من بعض الأحاديث ، آية أو حديثا ، يرون فيه أو فيها شيئا من التلاقى مع الشيوعية .

وأضرب مثلا لذلك ، ما يقولونه فى آية :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً [1] » .

من أنها تدل على المساواة التامة بين الناس فيما خلقه الله ، وفيما فى أيدى الناس ، وهم يمسكون بتلابيب هذه الآية وحدها ؛ ويتركون الآيات والأحاديث الكثيرة ، التى قررت حق الملكية واحترامها ...

ولو أنك هاجمت مافى جيبه ، أو بيته ، وأخذته لنفسك ؛ بمقتضى منطقه وفهمه ، الخطأ فى الآية ، لصرخ ، ودافع عن نفسه وملكيته ، وقال لك : هذا مالى ، هذا ملكى ، فكيف تريد أن تنتزعه منى ! !

وهكذا تجد بعض المسلمين يلوون أعناق الآيات أو الأحاديث ؛ لكى يستروا موقفهم ، ويوهموا البلهاء ، بأنه لامنافاة بين الاسلام والشيوعية ، وأنه من الممكن أن يكون الانسان مسلما وشيوعيا فى وقت واحد ! !

وهذا كذب وتضليل .. فالشيوعية فكرة تشبه أن تكون دينا عند أهلها ، وأول ما تقوم عليه انكار الألوهية وانكار

---

(١) سورة البقرة

الرسالات واليوم الآخر ، تبعا لانكارهم الألوهية ..

فكيف يلتقى مع الاسلام ، أو مع أى دين يعترف بالله ، والرسل واليوم الآخر ؟ !

كيف يجتمع الايمان بالله مع الكفر به ، والايمان برسله واليوم الآخر مع الكفر بهما ؟ !

انه من البلاهة أو « الاستعباط » أن يقال : انه من الممكن أن يكون الانسان مسلما وشيوعيا فى وقت واحد .

فان الشيوعية اذا دخلت قلبا من ناحية خرج الايمان بالله منه من الناحية الأخرى ، انهما نقيضان لا يجتمعان .

والذين يقولون بامكان الجمع بينهما انما

« يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ[1] » .

ان بعض المسلمين ينخدعون بما يطلقه دعاة الشيوعية ، من عملها على الاصلاح الاجتماعى ، والغاء الطبقات و .. وغير ذلك مما يتعلق بالناحية الاقتصادية والاجتماعية ! .

---

(١) سورة البقرة

وقد عرفنا فيما سبق ، كيف أن الشيوعية عادت الى نظـام الطبقات فى مجتمعها كأى مجتمع آخر ..

أما مايتصل بأصلاح الناحية الاقتصادية، والناحية الاجتماعية، فعلى فرض أن الشيوعية نجحت فيهما عندها فان مجتمعات كثيرة غيرها قامت على أسس غير شيوعية ، ومع ذلك نجـدها قد تحقق لها ما ترجوه ، من اصلاح اقتصادى واجتماعى ، يفوق كثيرا ماتحقق فى روسيا ، ولا سيما اذا راعينا ناحية هامة جدا فى حياة الفرد والجماعة لانجدها فى روسـيا ، ونجـدها فى غيرها من المجتمعات ، وهى : الحرية التى تحقق معنى الانسانية فى الانسان، وتميزه عن الحيوانات .

فالعمال فى بريطانيا وأمريكا وفرنسا ، والدول الغربيـة التى تعادى الشيوعية ، أسعد حالا من العمال فى روسيا ، والمجتمع فى هذه الدول أسعد حالا ، وأكثر اطمئنانا من المجتمع الروسى الذى تظلله الدكتاتورية بظلها القاتم ، فلايستطيع أحد أن يفكر أو يتكلم الا بما يتفق مع رغبة الحاكم الفرد المطلق التصرف ..

فما الذى يغرى المسلم بالشيوعية ؟ ويجعله يبيع دينه — وهو أعز شىء لديه — فى سبيل شىء موهوم ؟ !

نعم . من ذا الذى يجازف بأغلى شىء وأقدسه ، وهو العقيـدة الكبرى والايمان بالله ، وينحدر الى الكفر والالحاد والجحود ؟ ولأى شىء يفعل ذلك ؟ وما هو الثمن ؟

. لو كان يطلب الدنيا ، والحياة فيها حياة شريفة كريمة عزيزة ، فالاسلام بنظمه وتشريعاته ومبادئه يوفرها له .

وان كان يريد مع ذلك ، حياة فى الآخرة سعيدة هنيئة فى جنـة

الله ، متمتعا برضاه ، فطريق الاسلام يوصله اليها .

ان الاسلام يضمن للمسلم المستقيم ، المحافظ على دينه ومبادئه وتعاليمه ، حياة كريمة فى الدنيا ، سعيدة فى الآخرة ، والأمر فى تحقيق هاتين الحياتين الكريمتين ، موكول الى المسلم ، كفــرد ، وللمسلمين عامة كجماعة ، فان أرادوا خيرى الدنيا والآخرة ، عملوا واستقاموا »

« وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[1] » .

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا ، وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ[2] » .

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[3] » .

« ذَلِكَ وَعْدُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد » .

---

(١) سورة الجن

(٢) سورة الأعراف

(٣) سورة النور

نحن والإسلام

ولكن المسلم يتلفت حوله الى المسلمين ، فى مختلف أقطارهم ، فيجدهم متخلفين عن غيرهم من الأمم الأخرى ، فى كل ناحية من نواحى الحياة ، يشيع فيهم الفساد ، والركود والجهل ، وطغيان بعض الناس على بعض ، حتى طمع فيهم غيرهم من الأمم القوية ، فتثور نفسه لهذه الحالة المحزنة ؛ وتتألم لهذا المرض الذى حل بالمسلمين ، ويتلفت حوله يطلب المخرج والدواء ، فيجد كثيرا ممن بيدهم أمور المسلمين، أو توجيههم ، هم الذين يتزعمون ركب الفساد أو يعملون عى تمكينه فى المجتمع ، فيدب اليأس فى نفسه ، ويزداد سخطه وتبرمه ، وفى هذه الحالة يتقدم له زبانية جهنم من شياطين الشيوعية ، يزينون له طريقهم ، ويستغلون ما فى نفسه من سخط ليبثوا فيها الشيوعية ، التى يقدمونها اليه ، على أنها هى التى ستقضى على طغيان الطاغين ، وظلم الاقطاعيين ، وترد الحقوق الى المظلومين ، وأنها ستحقق له الفردوس الأرضى الذى تحن نفسه اليه ، فيجد فى هذا كله ارضاء لنزعاته ، ووسيلة لتحقيق رغباته فى الانتقام من الطغاة المستكبرين ، فيقع فى حبائلهم ، ويسلم نفسه لتوجيهاتهم ، وينزلق معهم الى الشيوعية ، والكفر بالله وبالوطن . « وعلى وعلى أعدائى » .

وهكذا يساعدهم على بلوغ غايتهم ، الفساد المستشرى فى المجتمع ، وجهل الناس بتعاليم دينهم وتشريعاته ، الكفيلة باقامة مجتمع عادل رحيم متكافل ..

ولو لم يكن فى ديننا ومبادئه ما يحقق للناس رغبتهم ، فى اقامة المجتمع المثالى المتعاون المتراحم ، لأمكن أن نلتمس لهم بعض العذر ، فى انحدارهم للشيوعية أو غيرها ، وقلنا : أناس

اغرتهم الدنيا ، ورغبتهم فى التمتع بها ، ورفع مستواهم فيهــا ، فساروا وراءها ، وباعوا فى سبيلها دينهم ، وعقيدتهم وايمانهم بربهم !!

ولكن مادام فى الاسلام نظم اجتماعية الهية ، وقواعــد حكيمة ، تكفل ايجاد الحياة المنظمة ، الراقية السعيدة ، وتفوق النظم التى وضعها « كارل ماركس » اليهودى الأصـــل وغيره من البشر ، مادام فيه الذى يطلبه الانسان فى الدنيا ، لو أرادها وحدها وفى الدنيا والآخــرة ، لو أرادهما معا ، فلماذا يترك المرء دينــه ؛ وعقيدته ، ونظمه وتشريعاته ، وينحدر الى الشيوعية الملحدة ؟!!

نعم . ما دام دينه كفيلا بتحقيق السعادة التى ينشـــدها ، والاطمئنان الذى يرجوه ، فلماذا يتركه ، ويســـتورد مبادىء أخرى : فيها شقاوته وخسارته ؟!

ولماذا لايجاهد فى سبيل تمكين مبادئه القويمة ، وانعاش خاماته الأصيلة ، بدلا من أن يجاهد ويعيش على خامات غيره المستوردة ؟!!

لو لم يكن عندنا لاستوردنا ، ولكن ما دام عنـــدنا فلماذا نستورد ؟ !

هذه هى القاعدة التى نطبقها فى عالم الاقتصاد ، فلا نستورد من الخارج ، مادام عندنا بضاعة جيدة تغنينا عن الاســتيراد ، وهذه القاعدة يجب أن نطبقها أيضا فى عالم المبـــادىء والنظم الاجتماعيـــة ، فلا نســـتورد أنظمة من الخارج ، لها ظروفها وبواعثها هناك ، وعندنا أنظمة تفوقها ، ولها مع ذلك اتصـــال ببيئتنا وعقيدتنا ، يجعلها محترمة مطاعة ، وفوق ذلك يكون الأخذ بها وسيلة لرضا الله الذى شرعها .

فمن ذا الذى يترك أنظمة هذا شأنها ، ويستورد من الخارج ،

الا اذا كان سفيها معتوها ، أو كافرا بهذه الأنظمة ؟!

يستورد الخيش ليلبسه ، وعنده القطن والحرير !! ويستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، ويعلن احتياجه للغير ، ويكون تابعا ذليلا له ، وفى امكانه حين يعنى بنظمه ويتبع رسول الله ، أن يكون سيد نفسه ، بل سيد الناس جميعا ، لابطريق القوة والعنف ، ولكن بطريق المبادىء العليا ، والعمل والسلوك المستقيم .

والمثل فى ذلك واضحة تحت أعيننا من كتب التاريخ ، نرى فيها كيف حققت المبادىء الاسلامية للعرب البدو المتفرقين ، الذين كانوا نهبا لغيرهم من الأمم ، أن يكونوا فى وقت قصير ، أسياد أنفسهم وغيرهم ، ويطووا الأمم القوية فى أزمانهم ، ويكونوا منها امبراطورية واسعة ، دانت لهم بمبادئهم القرآنية ، قبل أن تدين لسيوفهم . ثم أصبح سكانها جميعا أخوة فى السراء والضراء. أمة واحدة عنوانها .

« وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ »(1) .

ولقائل أن يقول ـ وما أكثر من يقولون ـ قد كان ذلك الذى تتحدث عنه فى زمن مضى ، والزمن الآن قد تغير ، والاسلام أصبح لا يستطيع بنظمه خلق مجتمع قوى صناعى سعيد بحياته، ومعيشته فى ظل الحرية والديموقراطية .

وقد يكون لهؤلاء عذرهم ؛ لجهلهم بالإسلام ، وتاريخه الزاهر فى الماضى ، ولأنه لم تقم فى العصر الحديث دولة اسلامية قوية، استطاعت تعميم المبادىء الاسلامية ، ولا سيما الاجتماعية منها ،

---

(1) سورة المؤمنون

فلم يتح لهم أن يروا أثر هذه المبادىء واضحا أمامهم .

ولكن هل يعتبر الجهل عذرا كافيا للمسلم ليعرض عن الاسلام ، ويجرى وراء استيراد المبادىء من الغرب أو الشرق ؟! أوهل يعتبر عدم قيام دولة اسلامية قوية ، بتنفيذ مبادىء الاسلام الاجتماعية، مبررا لانكباب المسلمين على غيرها من النظم ، وتضحياتهم في سبيلها ؟!

لقد مر وقت طويل تنحرف فيه المسلمون عن الطريق المستقيم، فأصابتهم سنة الله في كل منحرف ، وتداعت عليهم الأمم ، لتستعمرهم وتستغلهم ، كما تداعى الأكلة على قصعتها ، وكانت هذه الأمم القوية المستعمرة تنظر الى الاسلام والمسلمين ، نظرتها الى عدو أصيل ، فعملت على أن تزيد من ضعفه وضعفهم ، وتباعد بينه وبينهم ، وتشوه جماله ، وتشيع سوء الظن به ، حتى ينصرف أتباعه عنه انصرافا كليا ، وينماعوا فيهم ، فلا تقوم لهم قائمة ، ويظلوا عبيدا أذلاء ، لهذه الأمم القوية المستعمرة ، وتطوى الى الأبد صفحة الاسلام والمسلمين ! .

ولقد أصابت الأمم المستعمرة شيئا من النجاح في بلوغ أهدافها ، وتبلبلت أفكار المسلمين وصاروا نهبا للشرق والغرب ، ولولا مافى الاسلام من قوة أصيلة ، ولولا رجال هيأهم الله بحسن الفهم والادراك والشجاعة ، فصرخوا في المسلمين — وهم قطيع يسوقهم المستعمر — ليقفوا ، ويتدبروا أمرهم وأمر دينهم ، لظل المسلمون جميعا قطعانا وهم في غمرتهم ساهون ..

لقد كانت صرخة هزت النائمين فأخذ العقلاء منهم يفكرون ويعملون ، ولكن الركب لايزال في طريقه ، يجرفه التيار الذى سلطه عليه المستعمرون ..

ولقد صحا الركب حقيقة ، ولكنه نظر الى الحيـــاة حوله ، فوجدها خالية من تعاليم الاسلام ، ووجد المبادىء الاسـلامية أنقاضا مبعثرة ، يعلوها الغبار والصدأ ، لا تجد من يجمعها ويزيل عنها ما ألم بها ، ثم وجد زخارف الحياة الجديدة ، وما تزفه اليه من أفكار وما تغزوه به من وسائل الحضارة ومتعها ، فغــرته الزخارف وبهرته الأفكار ، ومظاهر الحضارة ، فانساق فى طريقه الجديد ، لا ينظر الى ذخائره المهملة ، وان نظراليها فلا تحظى منه الا بنظرة اشفاق ، أو شيء من الحنين . وكانت جديرة بأن يمد يده اليها ، ليجمعها ، ويجددها ويزيل عنها الغبار والصـــدأ ، ويرجع لها مجدها ويعيد لها حياتها ، ويعود فيجربها — كأغلى شيء عنده يعتز به — فيجدها قد منحته القوة والعزة .

ان كثيرا من المسلمين يسهل عليه أن يعتنق أفكارا غربية أو شرقية ، ويبشر بها ، ويضحى فى سبيلها ، ولايسهل عليه أن يعيد ثقته بأفكاره ، بدينه ، بتعاليم شريعته ، ويبشر بها ويضـحى فى سبيلها !!

بل من الأسف ربما يجد فى ذلك شيئا من الرجعية أو الجمود ، أو التأخر الذى يتحاشى أن يلصق به .

وهذه هى مصيبتنا ، لا سيما فيمن تثقفوا بعيدا عن ظل الدين وتربوا على موائد الغرب وأفكاره المســـمة . فهؤلاء هم ذخيرة المستعمر ، حتى فى كل بلد رحل عنها بجنوده !!

وان الانسان ليملكه العجب من أمر هؤلاء الذين يتطفلون على مبادىء يستوردونها من الشرق أو الغرب ، ثم يبذلون فى سبيلها النفس والنفيس !!

لماذا لايعنون بدراسة دينهم ومبادئه ، ويســـتخرجون منها

ما يناسب ظروفهم وما يرتفع بمجتمعهم ويسعده ؟!

لماذا لا يطالب المسلم ببعث التعاليم الاسلامية ، وتجربتها فى العصر الحاضر ، ويضحى فى سبيل هذا الهدف الجليل ، كما يضحى الكثيرون من المسلمين أنفسهم فى سبيل المبادىء المجلوبة من الخارج ؟! وجهاده وتضحياته حينئذ يكونان فى سبيل الله ، وفى سبيل تدعيم قوميته واستقلاله ، فيجزيه الله خيراً عن كل أذى يصيبه فى جهاده ، بدلا من أن يجاهد ، ويضحى فى سبيل الشيوعية ، والشيطان والتبعية الذليلة ؟ ! !

ثم لماذا لا يعمل المسئولون عن دين الأمة الاسلامية وتقاليدها ، المسئولون عن حمايتها من الشر والكفر ، والانزلاق وراء الدعايات الضارة بدينها ، وشخصيتها واستقلالها . لماذا لا يعملون على صيانة مجتمعهم ، وتجنيبه ويلات استيراد الشرور من الخارج؟!!

الفراغ النفسى

اننا حين نترك مبادئنا الأصيلة ، وننحيها جانبا ، نخلق بيدنا الفراغ الذى يتيح للمبادىء المستوردة أن تسده ، ونشجع الذين يبحثون عن مبادىء ، أو وسائل لتقييم حياتهم ، وتقـويتها وتدعيمها ، على أن يستورد كل انسان منهم ما يحلو له ، ويتفق مع ميوله ورغباته ، فى ايجاد المجتمع وتكوينه ..

ان المنطقة من الأرض التى يتخلخل هواؤها ، تندفع التيارات اليها من كل ماحولها ، حتى لتراها تصطرع وتعصف بما فيها ، وتذروه الرياح ، وهذه هى الطبيعة ، تتجلى فى الهواء ، كما تتجلى فى الأفكار وفى العقائد ، وكما رأينا «أيزنهاور» يدعيها ، ويحاول أن يفرض نفوذه على الشرق باسمها .

وقد حاربنا مشروع «أيزنهاور» فى الشرق الأوسط ، حيث كان يريد أن يفرض على هذه المنطقة التى تخلصت من نفوذ بريطانيا وفرنسا — نفوذا أمريكيا ، حتى لايترك مجالا النفوذ الروسى كما يزعم ، فأبينا أن نكون منطقة لنفـوذ الشرق أو الغرب ، وأعلن قائدنا المظفر أننا العرب ، نرفض أى نفوذ يفرض علينا من الخارج ، واننا نصنع مشيئتنا بأنفسنا ، ونسد مايقال انه فراغ بشخصيتنا ، واستجاب الشعب العربى الأبى فى كل مكان ، لصـوت الزعيم الحر الأبى ، برغم تخلف صنف من الحكام ، تعود على حيـاة الذلة والتبعية .

هذا ما فعلناه ، لندعم شخصيتنا السياسية والاقتصادية ، ولكن بقيت — مع الأسف — مشكلة النفوذ الفكرى ، وهى أخطر انواع النفوذ .

فنحن لا نزال منطقة متخلية عن شخصيتها الفكرية ، والثقافية والعقائدية والقانونية .

لازالت ثقافتنا شبه غريبـــة فى بلادها ، ومبادئنا وقوانيننا الأصيلة مبعدة عن وضعها، والثقافة والمبادىء والقوانين المستوردة تحتل عندنا مكان الصدارة .

وهذا شىء طبيعى ، ما دامت المنطقة منطقة فراغ ، تخلى أهلها عن مقوماتهم ، وتنازلوا عن مبادئهم وشخصيتهم ، فصدق فيهم قول الشاعر العربى : —

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

شىء طبيعى ، أن تهجم علينا الأمم الأخرى بمبادئها وأفكارها ، أو يقوم منا من يتلمسها ويستوردها ، ويطنطن بها ، ويبح صوته فى الترويج لها ، كبائعى السلع حين يقولون لك «داشغل بره مال الخواجه » .

نعم ان من مظاهر ضعف ثقتنا بأنفسنا ، مانراه من وسائل الترويج للســلع بأنها « وارد الخـــارج » وقد تكون من مصنوعاتنا وانتاجنا ، ولكنهم لجئوا لذلك تبعا لحاسة النــاس ، وعدم ايمانهم بأنفسهم ، وربما كانت صناعتنا أمتن بل ربما كانت من صناعتنا ، ولكن ضعف الثقة ، وتزعزع الايمان بالنفس، يهدر كرامة الأمة وكل ما يصدر عنها .

والأمر فى المبادىء والقوانين ، مثله تماما فى المصنوعات ، فنحن مزعزعو الثقة فى مبادئنا وتشريعاتنا الاصيلة مهما كانت قوية ونافعة وناجعة فى آثارها .

وقد مرت بى تجربة كشفت لى هذا النوع من التزعزع والضعف،

وان مضت عليها سنون ، فأنها لا تزال تتمثل بوضـــــوح فى مجتمعنا .

ففى سنة ١٩٣٦ ، سنة ١٩٣٧ م ، كانت اللجان القانونية ، التى ألفها الأستاذ الكبير السيد على ماهر ، فى وزارته سنة ١٩٣٦ تقوم بمهمتها فى تعديل القوانين ، وكنا قد ألفنا — ونحن طـلاب فى كلية أصول الدين « لجنة الدفاع عن الاسلام » لتطالب المسئولين بالاتجاه نحو مبادئنا الأصيلة ، فى تشريعنا الاسلامى ، فى التعديل المنتظر ، واتصلنا بكثير من المسئولين ، ورجال القانون والفقه ، من أعضاء اللجان وغيرهم .

وكان ممن اتصلنا بهم حينذاك المرحومان الشيخ أحمد ابراهيم وكيل كلية الحقوق ، وأستاذ الشريعة بها ، والأستاذ محمد على علوبة ، وفهمنا من الحديث معهما ، أن أعضاء اللجان لا ينظرون نظرة ارتياح الى ما نهدف اليه ، وكذلك المســـئولون من رجال الحكومة ، وقدما الينا نصيحة ، أو رسما لنا طريقة عملية ، يمكن الوصول بها الى بعض ما نريد .

وكان ملخص هذه الطريقة : أن نجتهد نحن من جانبنا لتقديم بعض المبادىء والتشريعات الاسلامية ، فى النواحى المدنيـــــة والجنائية اليهم ، وهم يقدمونها بدورهم الى اللجان ، لاعلى أنهـا مبادىء أو تشريعات اسلامية ، ولكنها من اطلاعاتهم على قوانين الغرب ونظمه وتشريعاته ! !

وبهذه الطريقة التى يجب أن تحاط بسرية تامة ، يمكن الوصول الى بعض مانريد !! ، وقال لنا المرحوم الشيخ أحمد ابراهيم ، انه استطاع بهذه الوسيلة ، أن يقدم بعض التشريعات ، وتنـــال تقدير اللجنة ، ومسارعتها فى الأخذ بها ، ولو علم الأعضاء أنهــــا اسلامية ، لسدوا الباب فى وجهها ، دون بحث أو نظر !!

هذه الحالة التى تمثل أقصى ماوصلنا اليه ، أو ماوصل اليه كبار مفكرينا ، من تزعزع ثقتهم بأنفسهم ، وتشريعاتهم ومبادئهم الأصيلة ، والتى تمثل فى الوقت نفسه ثقتهم العمياء بكل مستورد من الخارج ، لا تزال مسيطرة علينا برغم ما أقرته مؤتمرات القانون الدولية من « أن الشريعة الاسلامية حية مرنة تصلح للتطور مع الزمن »(١) .

وهى تمثل الفراغ النفسى ، الذى يمهد لكل دخيل السيطرة علينا ، أو يمهد لأنفسنا التطلع لكل ما هو دخيل مستورد مجلوب؛ لنجثوا أمامه ، ونتيح له « أن يركبنا » ، ويتحكم فى توجيهنا ، ومصائر حياتنا .

ونحن فى هذا الفراغ النفسى ، لايمكن أن نسد فراغنا سياسيا أو اقتصاديا ، **لأنك اذا أقمت نفوذاً سياسيا أو اقتصاديا** ، على فراغ نفسى ، كنت كمن يبنى قصورا فى الهواء، أو كمن يبنى على رمال ، فلا يلبث الجميع أن ينهار .

فمقاومة النفوذ الفكرى والثقافى والقانونى الأجنبى الذىلايصلح لنا ، ولا يتفق مع أوضاعنا ، مع الاعتزاز بأفكارنا وثقافتنا ، ومبادئنا وتشريعاتنا ، أمر ضرورى وأساسى ، نقيم عليه كل بناء آخر .

وبدون هذا لا يسلم البناء ، ولا يثمر المجهود .

لقد كان تهاوننا فى الأخذ بنظم الاسلام الاجتماعية ، وتخاذل الكثيرين عن نصرة الاسلام فى أنفسهم وفيما حولهم ، كان ذلك سببا فى ايجاد «الفراغ» الذى جعل كل مفكر ساخط ، وكل مظلوم حانق، وكل متبرم بالمجتمع، يبتعد فى تفكيره ، وفى التماس علاج دائه ورفع الظلم

---

(١) مؤتمر القانون الدولى المنعقد فى لاهاى سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٧

عنه ، وطلب انصافه ، عن الاسلام ، وطبه للمجتمع . وقيـــادته للنفوس ، فصار كل ماوقع ويقع فى البلاد الاسلامية ، من ظواهر الفساد الشيوعى ، نتيجة حتمية لهذا الابتعاد عن الاســـلام ، وهذا الاهمال والجحود الذى أصابه منا .

ولكن اذا كان الاهمال قد حدث فى الماضى ، وترتب عليه ماترتب، مما أفزعنا وأقض مضاجعنا ، فمن واجبنا الآن أن ننزل الميدان ، ونهب لفتح صيدلية الاسلام وترتيبها ، وتقـــديم دوائها المجرب للمجتمع المريض ، حتى نسد الفراغ الحاصل فى النفوس ، ونداوى المرض العالق بها ، ونرد لها ايمانها بدينها ونفسها وشخصيتها ؛ ونوجه الناس الى الأخذ بها ، والجهاد فى سبيلها ، ان لم يكن عن اقتناع بأنها جزء من دينهم يتعصبون له ، فلأنها نظمهم القومية ، التى تغلغلت فى نفوسهم ، وقامت عليها مجتمعاتهم مئات السنين، فأصبحت لهذا مبادىء ونظما قومية ، يجب أن نتعصب لهـا ؛ ونرفض كل استيراد من الخارج بدلها ، سواء كنا مسلمين أم غير مسلمين .

هل يكفل الإسلام قيام نهضة

ولنرجع الى هذا السؤال :

هل فى الاسلام من النظم والمبادىء ، ورحابة الصدر ، مايكفل قيام مجتمع متكافل قوى ؛ يسير نحو التقدم العلمى والصناعى ، كما نراه فى أوربا مثلا ، حتى يمكن الاستغناء بهـــذه النظم عن الاستيراد من الخارج ؟ ! (١)

ان الجواب عن ذلك يحتاج الى بسط الحديث . عن موقف الاسلام من العلم ، والتقدم الصناعى بل واى تقدم ، كما يحتاج الى استعراض الأسس التى قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة ، وما يردده بعض المأخوذين بها ، المغرورين بمعـــالمها ، من أفكار ومبادىء ، ومدى صلة هذه المبادىء بالاسلام .

ان كثيرين من المثقفين عندنا وهنت ثقتهم فى الشريعة الاسلامية ، وساءت نظرتهم الى الدين ، ولا شك أنهم متأثرون بعدة عوامل ، منها : تتلمذهم على الغرب وأفكاره ، والغرب ينظـــر الى الدين المسيحى متأثرا بالعداوة القديمة بين الكنيسة والنهضات الأوربية ، وقد انتهى فى عداوته هذه الى فصل الدين عن الدولة ، فأصبحت الحياة ونظمها لا شأن لها ولا ارتبـــاط برأى الدين ولا رجاله ، والمسلمون بارعون فى تقليد هذه الناحية ، بعد أن تأثروا بها ، دون

(١) تساءلت جريدة « جويش أوبزرفر » البريطانية فى ٢٧ مارس سنة ١٩٥٩ مثل هذا التساؤل فى بحث عنوانه « هل يقدر الاسلام على التحدى الشيوعى» ؟ ورددت عليه فى ايجاز فى حديثى الأسبوعى بجريدة «الجمهورية» بتاريخ ١٧ ابريل ، ١٩ ابريل سنة ١٩٥٩ وهنا نتناوله بالبحث المفصل .

تنظر الى الفرق بين الدينين ، ودون أن يمدوا بصرهم الى الوراء ؛ ليعرفوا فضل الدين الاسلامى ، فى بعث النهضات على اختلافها ، ولا سيما فى التقدم العلمى والصناعى ، فظلم المسلمون بذلك دينهم ، وظلموا أنفسهم .

وتأثر المسلمون أو بعض مثقفيهم خاصة فى نظرتهم السيئة الى الدين من تفكير بعض رجاله ، وجمودهم فى نظرتهم الى الشريعة والى الحياة ، فقد تعسف هؤلاء أحيانا فى فهم الدين — بحسن نية طبعا وعلى قدر عقولهم — فأدى ذلك الى أن يخرج عليهم المفكرون المسلمون الذين تتلمذوا على ثقافة أوربا ويهاجموهم أو يهاجموا الدين نفسه أحيانا .. ، واضطروا الى أن يعتمدوا على التفكير والتقنين الخارجى لتنظيم حياتهم ..

ولا أشك فى أن كثيرا من هؤلاء لو وجـــدوا تفكيرا اسـلاميا صحيحا ، لأسرعوا الى الرجوع بطبيعتهم الى حظيرة دينهم ، فرحين بما وجدوه فى بيئتهم من كنوز ، تجعلهم أغنياء مستقلين عن غيرهم فى تكوين حياتهم وتنظيمها .

لذلك كان من الضرورى أن ينهض الفاهمـــون للدين فهما صحيحا ، ليعرضوا على اخوانهم ، بل وعلى غيرهم معالمه الواضحة ، ومبادئه العامة الشاملة القويمة ، دون افراط ولا تفريط ، دون جمود أو تحلل .

والاسلام لا يتعنت فى نظرته للحيـــاة ؛ لأنه جاء لتنظيمها ، وتوفير السعادة لأهلها .

« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »[1] .

« مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »[2] .

---

(١) سورة البقرة

(٢) سورة الحج

القواعد التشريعية العامة ، مع هذه القواعد السابقة ، تتقبل أي تشريع جديد ، تقتضيه حال الأمة ، وتحقيق مصلحتها ، مالم يصادم نصا صريحا ، فحيثما تتحقق المصلحة فثم شرع الله ، ولو لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة .

وبهذه النظرة الحكيمة الواسعة الى شرع الله ، يمكن أن نقيم عليه نهضتنا ، كما أقام عليه الأولون منا نهضتهم ، وشيدوا عليه مجدهم وعزتهم ، في كل بلد نزلوها ، وكل بيئة حلوا بها .

ان النهضة الغربية الآن تتمثل فى العلوم والصناعات ، وقد أقام المسلمون الأولون منا فى بلادهم الواسعة نهضة تتفق مع أيامهم ، وكانت المثل الأعلى للنهضات فى تلك الأزمان ، وكان الأوربيون ينظرون اليها ، مثل نظرتنا الآن الى نهضة الغرب ، فتعلموا منها ، وأقاموا نهضتهم على ضوئها . وهذه حقيقة لا ينكرها الغربيون أنفسهم ، بل فاضت بها أقوالهم وكتبهم .

نشر « عمانويل دويسن » من علماء اليهود ، مقالا فى « كوارترلى ريفيو » quarterly raview الانجليزية ، قال فيه : « دخل الفينيقيون أوربا تجارا ، واليهود قوميين ، ودخلها المسلمون حكاما ، وحملوا بفضل القرآن قبس العرفان الى أوربا » .

« والحق أن المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة ، والطب والفلك والشعر ، وأحيوا تراث اليونان وعلومهم الميتة ، لقد كانت الدنيا محاطة ببحر من ظلمات الجهل ، فأغرقوا كل أرجائها فى النور ، فهم بهذا الاعتبار واضعو أساس العلوم الحديثة » .

وقال « جاستون كارمن » من مستشرقى فرنسا المشهورين

فى سلسلة مقالات نشرها فى جـــــريدة «فيجارو » عام ١٩١٣ :
« ان القرآن وهو منبع هذا الدين العقلى ودستوره ، قد احتوى على أسس تستند اليها حضارة العالم ، ففى امكاننا أن نقــول : ان هــــذه الحضارة نشـــأت من امتزاج الأسس التى نشرها الاسلام » (١)

ويقول المؤرخ الانجليزى « ادوارجيبون » ان موحـــدا ذا رأى فلسفى لايتردد لحظة فى قبول وجهات نظر الاسلام . فالاسلام دين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم»(٢)

ويقول المستشرق النمساوى «ليوبولدڤايس » الذى أســلم بعد دراسة عميقة للاسلام وتسمى باسم « محمد أسد » « ان الذى صنعه العرب ، كان أكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة ، لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة ، لقــد وجدوا طرائق جديدة للبحث ، وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هــــذا كله ، بوسائط مختلفة الى الغرب ، ولســـنا نبالغ اذا قلنا : ان العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه ، لم يدشن فى مدن أوربا النصرانية ، ولكن فى المراكز الاسلامية : فى دمشق ، وبغـــداد ، والقاهرة ، وقرطبة » (٣)

القرآن « قد احتوى على أسس تستند اليها حضارة العالم».
هذا ما يقوله مستشرق فرنسى عاش فى هذا القرن ، بما يتمخض عنه من نهضات فى مختلف فروع الحياة ، ولم ير فيه هـــذا الاوربى ما يتنافى مع أية نهضة يتقدم اليها هذا العالم ..

---

(١) عن كتاب « الدين والعلم» ص ١٢٣

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥

(٣) « الاسلام على مفترق الطرق » تعريب الدكتور عمر فروخ ص ٤١ .

ونحن نسوق هذه الشهادة وأمثالها ، لالأن القرآن فى حاجة الى شهاداتهم بعد أن شهد له منزله الحكيم الخبير بأنه

« شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[1] » .

وأنه « كِتَابٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ[2] ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

ولكن لكى ينظر هؤلاء المسلمون الذين شدت أبصارهم وبصائرهم للغرب ، الى ما يقوله المنصفون منه ؛ لعلهم يرجعون ، وينظرون الى دينهم نظرة انصاف ، كما نظر هؤلاء المنصفون من غير المسلمين . « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

---

(١) سورة يونس

(٢) سورة البقرة

الإسلام والعلم

ان القرآن والحديث مشحونان بالنصوص التى ترفع من قيمة العلم ، ومن شأن العقل ، وتدفعه دفعا لأن يتحرك ويتدبر ، وتعيب عليه الجمود والجحود .

فقد جاءت الآيات برفع درجات العلماء الذين يستعملون عقولهم ، فى الوصول الى ماأودعه الله فى كونه وشرائعه ، مما جعل منزلتهم أعلى من منازل الجهال والجامدين فقال تعالى شأنه :

« هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » (١) .

« يَرْفَعَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (٢) » .

ووضع العلماء بعد درجة الملائكة مباشرة ، فى أهم شهادة وأقدسها ، وهى الاعتراف بالله

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ » (٣) .

وفى آيات كثيرة ، وجهنا الى النظر والتدبر ، فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله فيهما ، وأشار فى ختام هذه

---

(١) سورة الزمر

(٢) سورة المجادلة

(٣) سورة آل عمران

الآيات الى أنه لايفهم حقائق الكون ، ويستفيد بما فيها من عبر ودلائل ، الا العالمون والعقلاء المفكرون

« وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »(١).

كما يستحث أصحاب العقول الى اعمال عقولهم بأسلوب قوى فيقول :

« أَفَلَا يَعْقِلُونَ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ، لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، لِلْعَالِمِينَ » .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »(٢) .

« قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٣) .

وبجوار هذا الحث القوى على التعلم والتدبر والتعقل ، تجده يعيب الذين يجدون صفحة الكون أمامهم منشورة ، فلا يستعملون عقولهم وحواسهم لفهمها وتدبرها ، فيدمغهم بأوصاف ، ينفر منها كل انسان يحترم آدميته وانسانيته .

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(١) سورة العنكبوت (٢) سورة الحج (٣) سورة يونس

لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ »(١) .

ووصفهم فى آيات أخرى بأنهم

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »(٢) .

وجعلهم شر الدواب التى لاتعقـــل ؛ لأنه أعطاهم العقل فلم يستعملوه .

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ »(٣)

وسخر من المقلدين المعطلين العقل والفهم ، الذين يقادون من خطامهم كما تقاد الأنعام ، فقال :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »(٤) .

وفى آية أخرى يعنفهم ويجبههم ، ويقول

« أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ »(٥) .

وآية أخرى يعلم رسوله أن يلقمهم حجراً ، ويقطع عليهم كل طريق للتقليد ، وإلغاء العقل ، فيقول رداً عليهم :

« أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ »(٦) .

وبهذا كله يطلق القرآن للعقل العنان ليفكر ويتدبر ؛ ويصـل بنفسه الى مكنونات خلق الله ، يســـتفيد منها حسيا ومعنويا ، فيسخرها لمنفعته ، ويهتف من أعماقه بقدرة خالقها ومبـــدعها الواحد الأحد ...

---

(١) سورة الأعراف　　(٢) سورة البقرة　　(٣) سورة الأنفال

(٤) سورة البقرة　　(٥) سورة لقمان　　(٦) سورة الزخرف

« رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ »[1] .

وفى القرآن آيات كثيرة تتصـل بعلوم الطبيعـة ، والطب ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والفلك ، وغـير ذلك من العلوم اتصالا قويا ، فقد ذكرها الله ، داعيا الى النظر والتـأمل فيها ، ولا شك أن تمام تدبرها ، وفهم ما تنطوى عليه من أسرار كونية ، يستلزم حتما فهم هذه العلوم والتبحر فيها . .

« إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »[2] .

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[3] .

« يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ »[4] .

« وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ »[5] .

« وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[6] .

---

(١) سورة آل عمران (٢) سورة الجاثية (٣) سورة الذاريات

(٤) سورة الزمر (٥) سورة ابراهيم (٦) سورة الحج

« وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »[1] .

« اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »[2] .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ . إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[3] .

« فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »[4] .

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »[5] .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

---

(١) سورة الرعد (٢) سورة فاطر (٣) سورة فاطر

(٤) سورة الطارق (٥) سورة الحجر

فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(١) .

كيف يفهم المسلمون هذه الآيات ، وكيف يصلون الى الأسرار التى تشير اليها ، دون أن يتبحروا فى العلوم والموضوعات التى تتحدث عنها ؟ . ان الدعوة الى تفهم هذه الأسرار ، دعوة قوية صريحة الى تعلم هذه العلوم .

«روى أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطى فى الرياضيات السماوية لبطليموس على أستاذه الأبهرى فدخل عليهما بعض الفقهاء يوما فقال لهما : ما الذى تقرءونه ؟ فقال الأبهرى : «أفسر آية من القرآن ، وهى قوله تعالى :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا »(٢) .

فأنا أفسر كيفية بنائها ..

قال الفخر الرازى يعلق على هذه الرواية بعد ما ذكرها : ولقد صدق الأبهرى فيما قال ؛ فان كل من كان أكثر توغلا فى بحار مخلوقات الله تعالى ، كان أكثر علما بجلال الله وعظمته » .

ولو تركنا كل هذه الآيات وما تدعو اليه ، ووقفنا عند آية واحدة من القرآن ، لكانت كافية وحدها ، فى بعث نهضة علمية صناعية شاملة ، وفى دفع المسلمين دفعا قويا ، الى كل ينابيع

---

(١) سورة المؤمنون

(٢) سورة ق

العلم والمعرفة والتفوق فيها ، والوصول الى ذروتها ، حتى يكونوا أسبق الأمم ، فى مضمار العلم بأنواعه وفروعه ، وبالتالى فى كل أنواع الصناعات ، والاختراعات التى تقوم على العلم .

هذه الآية هى قوله تعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ »[1] .

فاعداد القوة الكافية لكى يتغلب المسلمون على أعـــدائهم ، ويدافعوا عن حرماتهم ، ويصونوا كراماتهم وبلادهم ، يقتضى حتما أن يتعلموا كل علم ، وكل فن ، وكل صناعة ، وأن يتفوقوا فى كل ذلك على غيرهم ، تفوقا يكفل لهم دائما أن تكون كلمتهم العليـــا ، ونفوذهم هو المسيطر .

ففى هذا العصر ، الذى يقول عنه الرئيس جمال عبد الناصر، انه عصر العلم ، والعصر الذى يقول عنه الرئيس جمال عبد الناصر، ليحتكروا النفوذ والسيطرة على العالم ، فى هـــذا العصر العلمى لا يتحقق للمسلمين امتثال هذه الآية، والعمل بها الا اذا سبقوا غيرهم فى ميادين العلوم والصناعات ، فصنعوا القنابل الذرية والهيدروجينية والأقمار الصناعية والصواريخ ، ومختلف أدوات الحرب ، وما يلزم للجيوش أثناء الحرب ، وفى وقت السلم ، من أدوات ومهمات وأغذية ، حتى تتفرغ مطمئنة للدفاع عن أوطانها . وكل ذلك متوقف على العلم ، والنبوغ فيه .

---

(١) سورة الأنفال

والمسلمون الآن بعجزهم عن مسايرة غيرهم فى العلم والتصنيع، واعداد آلات الحرب بمختلف انواعها آثمون أمام الله ، يحاسبهم ويعاقبهم على تقصيرهم ، وتفريطهم فى العمل بما تدعو اليه هذه الآية .

فهى — اذن — آية واحدة ، تكفى وحدها ، لأن تبعث كل نهضة علمية وصناعية فى اتباع القرآن ، ولو وعوها وحدها وعملوا بها ، ورعوها حق رعايتها ، لوصلوا الى العزة التى كتبها الله لهم .

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »(١) .

والا فقل لى كيف يحقق المسلمون لأنفسهم هذه العزة ؟ ! نعم : هى آية واحدة كافية للتدليل على عناية الاسلام بالعلم ، والعقل ، والبحث ، والصناعة .

ومع القرآن الكريم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته تدفع المسلمين كذلك الى العلم والمعرفة بجميع فروعها .

فقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على طالب العلم ، وفرضه على كل مسلم ومسلمة « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، حتى ولو سافروا اليه أقاصى البلاد « أطلبوا العلم ولو فى الصين » (٢) ، يطلبه المسلم ويأخذه عن أى انسان ولو كان غير مسلم « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » (٣)

---

(١) سورة المنافقون

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى شعب الايمان والمدخل وابن عبد البر .. وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا (هامش — الاسلام والنصرانية ص ٨٤)

(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة .. ورواه غيره بالفاظ أخرى

وقد جعل الرسول فداء الأسرى يوم بدر أن يقوم الأسير بتعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، وحين احتاج الى واحد من أصحابه يتعلم العبرية أمر زيد بن ثابت أن يتعلمها على اليهود.

وحين خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع قال : « فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع »

والأحاديث القولية والفعلية التى تبين قيمة العلم وتحض المسلمين على التعلم كثيرة ، وهى مع الآيات الكريمة تشهد بأن الاسلام لايفتح ذراعيه للعلم فقط ، بل يدفع الناس اليه دفعا ، ولا عجب فى ذلك ، فالاسلام دين الحياة الصحيحة التى لا تقوم الا بالعلم ، الدين الخالد ، دين الانسانية كلها على مر الأزمان ، الدين الذى لا يرضى بالخمول ولا الذلة ولا الخنوع .

المسلمون والعلم

والى هنا نجد أنفسنا فى حاجة الى تدليل عملى من حياة المسلمين الأول ، لأن الاسلام اذا كان قد بعث النهضة العلمية فى اتباعه الأول ، وتجاوبوا معه في دعوته الى العلم ، فأنه لاشك قادر على أن يبعث النهضة العلمية فى أتباعه الآن ، ويكون الأمر متوقفا علينا نحن ، فنحن أناس وهم أناس ، والتعاليم هى التعاليم ، والحاجة الى العلم هى الحاجة ، بل ربما نكون الآن أشد حاجة الى العلم ، لأن الأمم القوية فى عصرنا تتسابق فى العلم والاختراع وتتخذه — كما يقول الرئيس جمال عبد الناصر — وسيلة الى القوة ، والى الاستعمار وبسط النفوذ ، بعد أن كانت الجيوش وكثرتها هى الوسيلة الى ذلك ..

يقول السيد جمال الدين الأفغانى وهو يتحدث عما سبق اليه العرب ونبغوا فيه من العلوم والفنون (١) :

« أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب ، بالاعتراف للعرب ببعض الفضل ، بما سقبوا اليه ، كالجبر ، وهو من موضوعات العرب وواضعه « أبو السمح » .

والجاذبية والمركز (٢) . لم يكن المكتشف لهما « اسحاق نيوتن » مع الاعتراف بفضل الرجل .

---

(١) من كتاب «خاطرات» جمال الدين الأفغانى للمخزومى ص ١٦٩ . والمسلمون العرب هم الذين ثقفوا ثقافة عربية اسلامية ولو لم يكونوا من أصل عربى

(٢) اكتشفها ابو بكر بن بشرون من الجيل الثالث للهجرة ، وعرفها بقوله عند ذكر مركبات الكيمياء : « قوة حاسة قابضة منعكسة الى المركز الارض » !!

وكذلك التحليل والتركيب (١) واكتشاف الفوسفور (٢) واستحضاره ، واستحضار الأوكسجين من حجر المغنيسيا (٣)

ووصفهم لغاز الأكسوجين والدلالة عليه بخاصة أنه غاز حساس ، وكذلك الأيدروجين وخاصيته ، وأن الأول منهما لحاسته يطفىء الأجسام الملتهبة ، ويصعد مرتفعا ، والثاني يلهبها وهو أحط من الأول .

وحامض الآزوت (٤) . وحامض الكبريت (٥) ، والكبريتي وغيرهما من عمادات مباحث الكيمياء — كل ذلك من مكتشفات العرب ، وكان الأساتذة في علم الكيمياء للجيل الثالث من الهجرة :

---

(١) كذلك التحليل والتركيب من مكتشفات ابن بشرون تلميذ احمد بن سلمة المجريطي الذي عاش في الجيل الثالث ، وذكر ذلك في رسالة لأبي السمح في الكيمياء الموجودة في مقدمة ابن خلدون تحت تعبير « الحل والعقد »

(٢) اكتشفه ابن بشرون كذلك في الجيل الثالث للهجرة .. ، والمؤرخ الالماني «شيفر» في كتابه « تاريخ الكيمياء » يقول صراحة أنه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت الى اللاتيني لبشير . من علماء العرب الموجود قبل أعصر يعرف استحضار الفوسفور من الادرار ويسميه « الياقوت الحجري الاصطناعي » .

(٣) وهو من مكتشفات ابن بشرون أيضا وعرفه بخاصته في الرسالة المار ذكرها لأبي السمح وتعبيره عنها «بروح حساسة أي غاز »

(٤) حامض الآزوت من مكتشفات جابر بن حيان الكوفي ولم يستطيع الغربيون انكاره أو ادعاءهم اكتشافه . وجابر عاش في الجيل الثاني للهجرة وفي العصر الثامن للميلاد يعني قبل الف ومائة سنة تقريبا .

(٥) اكتشفه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة الري — في بلاد العجم سنة ٢٤٦ هـ وتوفي سنة ٣٢٩ هـ وعرف استحضاره وذكره في كتابه « الحاوي » في فن الكيمياء باسم «روح الزاج» وأنه بتقطير « زاج قبرس» التي هي « كبريتيت الحديد » يستحصل حامض الكبريت الذي هو أهم الحوامض وألزمها وانفعها في الصنائع » انتهى هامش المصدر السابق ص ٢٣.

أحمد بن مسلمة المجريطى ، وتلميذه ابن بشرون ، وأبا السمح وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحرانى ، ومن بعدهم زكريا أبو بكر الرازى وغيرهم » .

وفى مجال التدليل على اهتمام المسلمين بالعلم ونبوغهم فيه يقول الشيخ محمد عبده فى كتابه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية »(١)

يقول « جيبون » فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق والغرب : « ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيوت العلم ، ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان عن ذلك أن ذوق العلم ، ووجدان اللذة فى تحصيله ، قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فارس وقرطبة .

« انقسمت الممالك الاسلامية فى زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام ، وتنازع الخلافة ثلاث شيع ، كان العباسيون فى آسيا ، والأمويون فى الأندلس من أوربا ، والفاطميون فى مصر من أفريقيا ، ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصرا على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس فى العلم والأدب ، وكان مرصد «سمرقند» قائما فى ناحية المشرق ، يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برصد الأفلاك ، ومرصد « جيرالد » فى الأندلس ، يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الادراك » .

« جميع المدارس فى البلاد الاسلامية ، أخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية ، عن مدرسة الطب فى القاهرة ... ، وأول مدرسة أنشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم ، هى التى أنشأها

(١) ص ٩٠ وما بعدها .

العرب فى « سالرين » من بلاد ايطاليا ، وأول مرصد فلكى ، أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى « أشبيلية » من بلاد أسبانيا »

« كان علم العرب فى أول الأمر يونانيا ، لكنه لم يلبث كذلك ، الا دون قرن واحد ، ثم صار عربيا ، ولم يرض العربى أن يكون تلميذا لأرسطو وأفلاطون ، أو اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى »

« قالوا : ان «باكون» هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة العلوم العصرية ، أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة ، والتمسك بآراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد ، ذلك حق فى أوربا ، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى للهجرة » .

« أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم ، هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات ، حتى لقد نقل «جوستاف لوبون » عن أحد فلاسفة أوربا أن القاعدة عند العرب هى «جرب وشاهد ، ولاحظ تكن عارفا » ، وعند الأوربى الى ما بعد القرن العاشر المسيحى « اقرأ فى الكتب ، وكرر مايقول الأساتذة تكن عالما » . فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقبت من سوء المآل ؟ !!

« قال « ديلامبر » فى تاريخ علم الهيئة : « اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين ، أمكنك أن تعد فى العرب عددا كبيرا غير محصور » .

« وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب ، ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم »

« العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة ، للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن الساعات الزوالية لهذا الغرض».

« قد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها ، حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية » .

قال الفيلسوف «درابر» الامريكانى : « تأخذنا الدهشة أحيانا عند مانظر فى كتب العرب ، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية ، وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم ، وكانوا يذهبون الى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن ، والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم ، هو ترقى المعادن فى أشكالها .

قال الخازنى : اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة ، حتى صار ذهبا ، ظن من هذا أنه مر فى صورة معادن أخرى ، فكان رصاصا ، ثم قصديرا ، ثم صفرا ، ثم فضة ، ثم صار بعد ذلك ذهبا . ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك ، فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الانسان ، انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ، ومن طريق الترقى ، وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب فى صور الأنواع المختلفة ، كأن كان ثورا ، ثم حمارا ، ثم فرسا ، ثم قردا، ثم صار بعد ذلك انسانا »

ويقول الفيلسوف جوستاف لوبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم ، وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين

جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس ، كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ، صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ومهمازا للقـــوى البشرية ، يسوقها الى كمالها الذى أعدت له » .

« وليس فى الأوربيين من درس التـــاريخ وحكم العقـــل ، ثم ينكر أن الفضل — فى اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تفكر ، وفى معـــرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم — أنماهو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم ، وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم ، وكان من حظ العـــلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا ايطاليا أن البابا كان غائبا ؛ لأن كرسية كان انتقل الى فرنسا فى أفينون نحو سبعين ســـنة ، فدب العلم الى شمال ايطاليا ، واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القرن الثانى عشر ، وقد رصفت بالبلاط على نحو ما وصفت به مدن أسبانيا » .

ويقول آخر « لا أدرى كيف أعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده ، وأن الـكنيســـة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرنا فى أوربا ، ولم تمنحنا فلكيا واحدا » .

ويقول العالم الفرنسى «سيديو» : « لقد كان المسلمون منفردين بالعـــلم فى تلك القرون المظلمة ، فانتشروا فى كل مكان وطئته أقدامهم ، وكانوا هم السبب فى خـروج أوربا من الظلمات الى النور » .

ويقول « مستر هنتر » المؤرخ الانكليزى : « حين قبضنا على الهند كان المسلمون فيها أرقى السكان عقلا وسياسة وعلما وعملا، وكانوا يمتازون بقوة الجسم والشجاعة .

واخيرا يقول الرئيس أيزنهاور فى خطاب له امام الجمعية العامة

للأمم المتحدة (١) :

« اننى عندما أتطلع الى المستقبل أرى ظهور دول عربية حديثة سوف تقدم الى هذا القرن الحاضر مساهمات تفوق تلك التى لا نستطيع أن ننساها فى الماضى . اننا نذكر أن علوم الحساب والجبر فى الغرب مدينة كثيرا للرياضيين العرب كما أن الكثير من أسس علم الطب فى العالم وكذلك علم الفلك قد وضعها العلماء العرب . وفوق هذا كله نذكر أن ثلاثة من الديانات الكبرى فى العالم قد ولدت فى الشرق الأدنى » .

هذا مابعثه الاسلام فى نفوس أتباعه ، من نهضات علمية مختلفة ، نطق به علماء غير مسلمين ، حرصنا على نقله هنا حتى لايقال « شهد شاهد من أهلها » ، وان كان يكفينا فى موضوعنا الآيات والأحاديث التى تدعو الى التعقل والتدبر والبحث ، واعداد القوة التى يتمكن بها المسلمون من الدفاع عن عقيدتهم وأنفسهم وحرماتهم ، لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الله هى الحق والعدل والسلام .. كان يكفينا هذا ولكنا رأينا أن نضع أمام القراء صورة عملية مما فعله الاسلام فى نفوس أتباعه ، وما كانوا عليه من رقى علمى وصناعى حتى يكون دليلنا علميا وعمليا ، وحتى يفهم المسلم وغير المسلم أن الاسلام صانع النهضات لامعوقها ، وحتى يحس المسلم جنايته على نفسه وعلى دينه حين يتأخر عن الركب المنطلق ، وحتى يعرف أن سر تأخره انما يرجع الى ضعف فى نفسه ، وضعف فى تدينه ، وتعلقه باسلامه لا الى دينه .

فلعله حين يعرف مكان الضعف فى نفسه يقدم على العلاج ويأخذ فى أسباب الصحة والعافية ، ويعود فى أيامه الحديثة عملاقا كما كان فى أيامه الماضية ، وأمامه دائما سنة الله فى قوله :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » .

---

(١) نشرة الاستعلامات الأمريكية ١٠ — ٢ — ١٩٥٩

الإسلام والعمل

هذه الناحية العلمية التى ترتكز عليها كل نهضة ، كان من الطبيعى أن يبعثها الاسلام فى نفوس أتباعه الخلص ، فهو دين تفكير وتعقل ، كما هو دين نشاط وعمل ، لا يرضى من متبعيه بالخمول والكسل والتقاعد ، والبعد عن النشاط الحيوى والعملى فى الحياة ، حتى ولو كان ذلك انقطاعا لعبادة الله من صلاة وصيام .

اننا نجد الاسلام يحارب هذه النزعة ، نزعة الرهبانية فى المسلمين ، ويفهمهم أن العمل فى أى مجال من مجالات الحياة عبادة كذلك ، يثاب العامل عليها ، متى كان رائده الاخلاص ، بل انه امعانا منه فى محاربة الرهبنة والتبطل ، فضل العاملين لكسب العيش ، الكادحين الكسب الشريف لهم ، ولأسرتهم ومن حولهم ، فضلهم على المنقطعين العبادة ليلا ونهارا ، أولئك الذين يعيشون عالة على غيرهم من العاملين .

وقد جابه الرسول صلى الله عليه وسلم جماعات من أصحابه ، سرت الى أفكارهم نزعة الترهب ، والانقطاع للعبادة ، كما كان يفعل الرهبان والمتعبدون من اليهود والنصارى ، ورغبة منهم فى تحصيل أكبر قسط من الثواب

وذلك حين علم أن جماعة فرضت على نفسها الصيام المستمر ، والقيام والتبتل فى الليل ، وآخرين حرموا على أنفسهم القرب من النساء ، وتناول طيبات الحياة ، بقصد التقرب الى الله ، فأسرع الرسول الى تنبيههم لخطئهم ، وقال لهم — وهو القدوة الحسنة — وأغلظ لهم القول : « لكنى أصوم وافطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم

وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى (١))»

وفى رواية أخرجها البخارى ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبر انك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ . قلت : بلى يارسول الله ، قال : فلاتفعل. صم وافطر ، وقم ونم ، فان لجسدك عليك حقا ، وأن لعينك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك (زوارك) عليك حقا ، وان بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فان لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فان ذلك صيام الدهر كله .. الى آخر الحديث ..»

وفى هذه الظاهرة ، التى نزع اليها بعض الصحابة ، نزلت آيات كريمات ، تصحح أفكارهم ، وتوجههم التوجيه السديد ، الذى يتفق وطبيعة الاسلام ، ورسالته فى الحياة :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ »(٢) .

وفى النهى الذى وجهته الآيات لهم قوة تتناسب مع جنوحهم الرهبنة ، ومع خطر هذا الجنوح على الحياة ، نستشف هذه القوة من ألفاظ الآية ، ومن قوله لهم :

« لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

وحقا كان فى اتجاههم هذا اعتداء على الفطرة السليمة ، واعتداء

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) سورة المائدة

على طبيعة الاسلام ، ورسالته العامةالخالدة ، ونظمه لقيام الأمم والحضارات ، والا فماذا تكون حالة أمة انصرف خيار الناس فيها، كلهم او جلهم عن الحياة ، وانقطعوا للعبادة ؟ !

ماذا يكون مصيرها وقد غلبت عليها الرهبنة ؟ انها تصبح أمة متسولة عاجزة ، تتحول الى لقمة سائغة للآكلين ، أمة لا رسالة لها ولا خطر ولا كيان .

ومن أجل هذا وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم — وهو القائد والمربى الأعظم — يعنى بعلاج هذه الظاهرة ، ظاهرة الرهبنة والتبطل ولو للعبادة ، حتى يجتثها من المجتمع الاسلامى .

فحين جاءه جماعة من أصحابه ، سألهم عن أخيهم ، فأخبروه انه بخير، منقطع للعبادة ، يصوم النهار ويقوم الليل ، فسألهم عمن يتكفل بحاجاته ومعيشته ، فقالوا كلنا يارسول الله ، فقال لهم : « كلكم خير منه » . وكانوا يؤدون ماعليهم من الفرائض مع النوافل ، ويباشرون مع ذلك عملهم الذى يكتسبون منه قوتهم ، فكانوا لذلك خيرا من المنقطع العبادة . وفى تفضيلهم على المنقطع للعبادة مغزى جليل ، يتفق مع نظرة الاسلام للحياة ، ويتفق مع طبيعة الحياة نفسها .

وحين كان فى غزوة من الغزوات ، أباح الافطار فى رمضان ، لانهم فى جهاد وعلى سفر ، فأفطر جماعة ، وأصر آخرون على متابعة الصيام ، حتى أنهكهم الجهاد والسفر مع الصوم ، فعجزوا حتى عن خدمة أنفسهم ، وتقدم المفطرون للعمل ، وخدمة الصائمين، وهنا يقول الرسول قولته الفاصلة : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله » وجعل لعملهم فى خدمة اخوانهم ، ونشاطهم فى سيرهم وجهادهم ، أجرا يفوق أجر الصائمين العاجزين المنهكين .

ويحارب الرسول البطالة ، والاعتماد على سؤال الناس ، فيقول : «لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره (يجمع الحطب ويبيعه) ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه » ويقول : « لاتزال المسألة بأحدكم حتى يأتى الله يوم القيامة وليس بوجهه مزقة لحم »

وحين جاءه رجل يسأله شيئا من الصدقة ، سأله ؟ هل يملك شيئا ؟ ، وكان الرجل يملك شيئا بسيطا فأمره الرسول أن يبيعه ، واشترى له بثمنه فأسا وحبلا ، وأمره أن يذهب إلى الجبل ويحتطب ، فهذا خير له من السؤال .

وقال عليه الصلاة والسلام يرغب فى العمل والكسب : «مامن انسان يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة ، الا كان له به صدقة » .

وحين اجتمع مع أصحابه فى الصحراء ليعدوا لأنفسهم طعاما ، أخذ كل منهم على عاتقه عملا فقال الرسول « وعلى جمع الحطب » .

وقال « ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا السعى على الرزق»

وسوى بين الرجل الذى يسعى على نفسه أوعلى أبنائه ووالديه ليعفهم عن ذل السؤال وبين المجاهدين فى سبيل الله فى الأجر والمنزلة .

وجعل الذى يعمل فى الخطوط الخلفية للجيش : فى المزرعة ، أو المصنع ، أو الديوان ، أو أى عمل لتسيير دفة الأمور وتنظيمها فى الدولة ، كالمجاهدين فى الخطوط الأمامية . فقال « من جهز غازيا فقد غزا » .

وقال : « ان الله ليثيب بالسهم الواحد ثلاثة : صانعه ، ومناوله، والرامى به »

وأخيرا هو الذى قال قوله الجامع « اليد العليا خير من اليد السفلى »

والله سبحانه يأمر المسلمين بالعمل وهو يقول لهم :

« فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ »(١) .

ولتوجيه سديد قويم اختار الله التعبير فى الآية بالمناكب ، وهى أعالى الأرض ، وأصعبها ارتقاء ، مثل منكب الانسان .

فهو يأمرهم بهذا التعبير البلاغى الحكيم ، ألا يقفوا فى سعيهم أمام اية صعوبة ، بل عليهم أن يقهروا الصعاب ، ويذللوا المستحيل، للاستفادة مما خلقه الله لهم فى الأرض — ظاهرها وباطنها —

ويقول الله :

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » (٢)

وكان عمر رضى الله عنه يمشى فى شوارع المدينة ، ويضرب بدرته كل عاطل كسول ، وهو الذى قال للمسلمين فى هذا الصدد: لا تقعدوا فى انتظار أن تهبط عليكم الأرزاق ، فان السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة .

والآيات والأحاديث والوقائع التى تدل على عناية الاسلام بالعمل والكسب من طرق طيبة ، كثيرة لاتحصى ، وهى كلها شاهدة بأن الاسلام لا يعرف الكسل ولا الخمول ، ولا يرضى عن

---

(١) سورة تبارك

(٢) سورة الجمعة

مسلم ينقطع عن العمل والكسب ، حتى ولو كان انقطاعه للعبادة والتبتل .

وهو حين يأمر المسلمين بالعمل والكسب ، يأمرهم كذلك بتجويد عملهم ، واتقانه والاخلاص فيه فيقول الرسول « ان الله يحب من العبد اذا عمل عملا أن يتقنه »، حتى فى مباشرة ذبح الحيوان وحتى فى طريقة أخذ القصاص من المعتدى .

« اذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، واذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

وفى نطاق هذه التوجيهات الكريمة يتكون المجتمع الاسلامى السليم ، الذى لا مكان فيه لعاطل بليد أو خامل كسول .

فهل يمكن بعد هذا أن يقال : ان الاسلام يقعد بأتباعه عن العمل والنهوض ؟ ، أو أنه مسئول عما فيه المسلمون الآن من تأخر وقعود ؟!

« ما آمن بى من بات شبعان ، وجاره جائع الى جانبه وهو يعلم » .

« من كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » .

« من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » .

« المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره

الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عـون أخيه » .

وعلى هدى هذه الأسس الرخيمة ، وفى ظل هـــذه الروح الكريمة ، أقام الاسلام قوانينه ونظمه الاجتماعية **فحرم الربا :** لأن فيه استغلال حاجة المضطر ، وأخـــذ مال منه نظير اعانته واغاثته ، مع أن الله جعل جزاء هذه الاعانة أن يعينه الله ويغيثـه اذا وقع فى مكروه ، ويجزل له الثواب فى الآخرة ، ويفرج كرباته فيها ، فوق ماتغرسه الأغاثة فى المجتمع من محبة ومودة وترابط اجتماعى .

والاسلام حين حرم الربا ــ أيهـا المخـــدوعون بنظم الغرب المستوردة ــ يحول دون استغلال رأس المال للتسلط على الفقراء والمحتاجين ، وابتزاز أموالهم ، وتكديسها فى يد الأغنياء القادرين، فى الوقت الذى تخرب فيه بيوت المحتاجين ، وتنزع أملاكهم ، وكم رأينا هؤلاء المرابين يخربون بيوتا ، وينزعون أملاكا ، يستولون عليها نظير مبالغ زهيدة ، لا تساوى عشر معشار ما استولوا عليه ، بل رأينا نظام الربا يغرق مصر ــ الدولة ــ فى ديون لا أول لها ولا آخر ، ويوقعها فى أخطبوط أوربى ، أفقدها حريتها واستقلالهـا ، أيام سعيد واسماعيل وتوفيق .

التكافل روح المجتمع الإسلامى

والاسلام حين يعنى بالعمل هـذه العناية ، لا يهمل الذين يصابون بسوء الحظ فى حياتهم العملية ، فلا يكسبون مايضمن لهم معيشتهم ، أو لايستطيعون العمل لمرض أو شيخوخة أوعاهة، بل يأخذ بيدهم ، ويوصى المجتمع بكفالتهم ، وتوفير الحياةالكريمة لهم ، حتى يسير الموكب كله فى طريقه ، دون أن يتخلف منه أحد ، ويظهر المجتمع الاسلامى كالبنيان المرصوص المتين ، يشد بعضه بعضا ، «مونته» الحب والتعاطف والتعاون ، ويبـدو كالجسم الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، واذا اشتكى بعضه اشتكى كله .

فى هذا الاتجاه القوى السليم رسم الاسلام لأتباعه طـريق السير فى الحياة المزدحمة بالمتاعب والمصاعب والمفارقات . فيقول القرآن الكريم :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ، ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ . . . »[1] .

« آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ »[2]

---

(١) سورة البقرة (١) سورة الحديد

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : —

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

« أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا ، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى »

فالاسلام حين يحمى أتباعه من هذه المعاملة المقوتة المخربة ، وحين يغريهم بالتعاطف فيما بينهم ، ويعدهم على ذلك عطفا منه ورحمة ، وعونا وجزاء مضاعفا ، لايمكن أن يهاجم ، أو يقال عنه انه يقف عقبة في طريق المدنية بحال من الأحوال .

ان المدنية التى نراها اليوم ونعيش فيها ، انما هى مدنية شرهة ، مدنية مادية ، لا تعرف معنى التعاطف والتعاون ، ولا تتذوق المعانى الكريمة ، التى حرص الاسلام على أن تسود بين أتباعه ، مدنية تطل علينا بروحها الكالح كل يوم ، فنقرأ فيما قرأناه عن آثارها فى النفوس ، أن جدة فى أمريكا ، حرصت على أن تأخذ أجرا من بنت لها ، تركت عندها حفيدتها الصغيرة ترعاها ساعتين من النهار .

ان الاسلام يشرفه أنه حرم هذا الاستغلال ، ولا يمكن بحال من الأحوال لشيوعى أو غيره ، أن يفتح فمه بكلمة نقد للاسلام ، فى مبادئه الرحيمة التى حرمت الربا ، بل الأمر بالعكس ، يجب على كل انسان — ولو كان غير مسلم — أن يفخر — فى هذا العصر الذى يتجه الى منع الاستغلال وتحريمه — بما فعله الاسلام ، ويقول — ولا سيما المسلم — لقد حرم الاسلام هذا الاستغلال منذ أن وجد ، وقضى على هذا الداء الوبيل منذ قام .

ولو كان للمسلمين ثقة بنفوسهم ، واعتزاز بدينهم ، لفاخروا

العالم بهذا ، بدل أن ينقادوا من أنوفهم للمدنية الغربية ودعاتها ، ويهاجموا الاسلام من هذه الناحية .

ولو أن الغرب هو الذى شرع هذا المبدأ ، لعده من أولى مفاخره الكبرى على الانسانية ، ولتشدق له المتشدقون وطبلوا وزمروا ، ولكن ضعف المسلمين ، وفقدان ثقتهم بأنفسهم ودينهم ، جعلهم يتلقون — ساكتين — هذه الصفعة من الغربيين ، الذين يدأبون على تلبيس الحق بالباطل ، وقلب مفاخر الاسلام مثالب ، بل ان كثيرا من المسلمين — مع الأسف الشديد ، وتحت واقع الحياة الغربية المادية ، التى اكتنفتهم من كل جانب — سايروا الغربيين ، وانطلقت السنتهم معهم ، وساروا فى ركابهم يعيبون الاسلام فى هذا المبدأ الحكيم الرحيم ..

ورحم الله أياما كان أجدادنا وآباؤنا فيها يحرصون على اقراض المحتاجين واعانتهم ، دون سند وصك يأخذونه عليهم ، بل كانوا يفعلون ذلك فى خفية يحرصون عليها — ويبالغون فيها ، مستعيذين بالله من الربا والمرابين ، والشيطان الرجيم .

ولكن اقامة مجتمعنا على النظام الغربى وربطه به منذ زمن جعلنا نتصور أنه لا يمكن لنا أن نعيش الا بنظام الربا ، ولو أن مجتمعنا أقيم على الروح الاسلامية المثالية ، من المحبة والتعاون والايثار ، لوجدنا أنفسنا فى غير حاجة ماسة الى هذا النظام ، ولأمكن حصر شره المستطير فى أضيق الحدود .

***

وكما حرم الاسلام الربا حرم كل استغلال لحاجة الناس حرم استغلال العامل ، وفرض أجر زهيد له ، أو حرمانه من

اجره ، أو تكليفه من العمل فوق طاقته ، حتى الخدم قال عنهم الرسول فى مقام الترحيم بهم ، والاشفاق عليهم ، وعدم استغلال جهودهم ، انهم اخوانكم ، «لاتكلفوهم من العمل مالايطيقون ، فان كلفتموهم فأعينوهم » .

وحرم الاحتكار حتى يمنع استغلال حاجة الناس ، وظروفهم الاضطرارية ، لابتزاز أموالهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » و « من احتكر فهو خاطىء» و «من احتكر طعاما أربعين يوما، فقد برىء من الله وبرىء الله منه» . .

وهكذا ينظر الاسلام الى المحتكر المستغل ، وذلك حتى يحمى الناس من شرور الاستغلال والاحتكار ، وكل معاملة فيها تغرير بالمتعاملين ، واستغلال لحاجتهم أو غفلتهم، يمنعها الاسلام ويلعنها

وهو بهذا يقيم الحياة ، والتعامل فيها ، على أساس من الحب، والعدل والصراحة والتعاون . .

وليس هناك من يكره مثل هذه الحياة ، الا الذين لا يحبون أن يعيشوا فى الأضواء ، ويؤثرون عليها حياة الظلام كالخفافيش . .

الضمان الاجتماعى

وفى ظل الأسس الرحيمة التى أقام عليها الاسلام تشريعاته لبناء المجتمع المتكامل المتعاون نجده يلزم الدولة بضمان العيش الكريم للعاجزين عن الكسب لمرض أو شيخوخة ، وهو ما ظهر أخيرا فى الغرب وسموه « الضمان الاجتماعى » واعتبروه أرقى ماوصلت اليه المدنية الحديثة من النظريات الاجتماعية ..

وليس بغريب على الاسلام أن يعنى بهؤلاء العاجزين ، الذين عجزوا عن الكسب الشريف ، الذى يعولهم ويعول أسرهم معهم ، فيجعل لهم فى مالية الدولة ضمانا للعيش الكريم .. وينص على ذلك فى القرآن والسنة ، ويعمل الخلفاء المسلمون على تطبيقه فى رعاياهم ..

يقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »(١) .

والصدقات هنا هى الزكاة المفروضة ، التى قاتل أبو بكر رضى الله عنه الممتنعين عن أدائها لخزانة الدولة ، فهى حق معلوم فى أموال القادرين ، عليهم أداؤه ، لتستطيع الدولة به القيام بالتزاماتها العامة نحو هؤلاء الذين ذكرتهم الآية .

---

(١) سورة التوبة

ومن مفاخر الاسلام أن التزاماته نحو العاجزين لم يفرق فيها بين رعايا الدولة الاسلامية ، بل جعل الدولة تقوم بها المسلم وغير المسلم ، مادام الجميع يستظل برايتها .

والأمثلة التى أسوقها لك هنا انما حدثت مع يهودى ونصرانى.

فقد رأى عمر رضى الله عنه شيخا مسنا يسأل الناس — وعلم أنه يهودى وكان يكره السؤال — فقال له : ما ألجأك الى ما أرى؟.. وعرف منه أنه مضطر الى هذا لسد حاجته ، ودفع ماعليه من جزية ، فأخذ بيده ، وذهب به الى منزله فأعطاه ما يكفيه يومه ، وأرسل الى خازن بيت المال يقول له :

« انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخسره عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب » .

ثم وضع عنه وعن أمثاله الجزية ، وأصبح مبدءا متقررا فى الدولة الاسلامية ، أن تقوم بتأمين المسنين العاجزين عن العمل ، كافلة لهم معيشتهم ، لا فرق فى هذا بين المسلم وغير المسلم .

وكذلك رأينا عمر يفعل مثل هذا المرضى المقعدين عن العمل ، فقد مر وهو فى طريقه الى الشام براهب نصرانى مجذوم فأمر باعطائه من بيت المال راتبا يكفل له حاجته باستدامة .

وكانت هذه سنة جرى عليها الخلفاء من بعده ، فرأينا الخليفة « المنصور» العباسى يأمر ولاته باجراء الأرزاق على القواعد من النساء اللاتى لا أزواج لهن ، والأيتام ، والعميان ، كما أمر الخليفة « المهدى » من بعده باجراء أرزاق مستديمة المجذومين ، ورأينا « طاهر بن الحسن » يدعو ولده حين استعمله « المأمون » على

« الرقة » الى تعاهد أهـــل البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة فيتحمل مؤونتهم ، ويصلح حالتهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا ، ويقول له :

« تعاهد ذوى البأساء وأيتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال ، اقتداء بأمير المؤمنين (المأمون) فى العطف عليهم والصـــــلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة » .

وقد بلغ من رعاية الدولة لرعاياها أن الوالى كان يبعث فيهم من ينادى : من نزل به ضيف أو طرأت عليه حاجة لتتكفل الدولة بما يلزمهم ؟ وكانوا أحيانا يبحثون فى القرية أو المدينة عن محتاج يدفعون اليه الزكاة فلا يجدون ، فينتقلون الى القرى المجاورة ..

فعل الاسلام هذا منذ أربعة عشر قرنا تقريبا ولم تعرفه المدنية الحديثة الا فى هذا القرن العشرين .

جاء فى كتاب « الضمان الاجتماعى » للأستاذين صادق مهدى السعيد ما يلى

« ظهر هذا التعبير (الضمان الاجتماعى) لأول مرة فى عالم التشريع عام ١٩٣٥ م ، وذلك حينما أصدر مشرع الولايات المتحدة الأمريكية قانون « الضمان الاجتماعى » الذى كان الغرض منـــه أولا — اصلاح المفاسد التى كانت تعوق نظام المجتمع فى تلك البلاد ، ومقاومة العوامل التى تقلق الأفراد دائما فى حياتهم لاسيما فى حالتى البطالة والشيخوخة » .

« ثم معالجة الآثار السيئة الناجمة عنها ، ثانيا »! .

« وبدأت الدول الأوربية بعد ذلك تنسج على منوال أمريكا فى هذه الناحية » .

فهل يعرف هذا أولئك الذين يحلو لهم أن يطبلوا ويزمروا لكل ما هو غربى ، ويهملوا كل ما هو شرقى ؟!

وهل يمكنهم بعد أن يعرفوا هذا أن يقلعوا عن الفناء والذوبان فى كل ما يأتى من الغرب ، ويشعروا بشخصيتهم ، ويردوا لها اعتبارها ، وينصفوا تشريعهم ونظامهم الشرقى العريق ؟ !

بل انى أقول لهؤلاء ان فى التشريع الاسلامى الشرقى مبدأ لم تصل اليه أية دولة فى العالم للآن ، وتتقطع أعناق الغرب والشرق دون الوصـــول اليه.. و « آه » لو قدر المسلمون تشريعهم وانصفوه ..

هـــذ المبدأ قرره القرآن ، وقررته السنة فى صراحة تامة ، وهو : **كفالة الدولة للمدين ، الذى استدان للاصلاح بين الناس ، كدفع غرامة أو دية ، أو استدان للقيام بمشروع عام نافع المجتمع أو استدان لينفق على نفســه وأسرته بالمعروف ، وعجـز عن الوفاء .**

هذا المدين العاجز عن الســداد كفلته الدولة ، وجعلت له حقا فى بيت المال يعينه على سداد دينه ، واذا توفى وليس له ميراث يفى بالدين ، فالدولة تقوم نيابة عنه وعن الورثة بسداد دينـه للدائنين ..

لم أعلم ــ و لااظن ــ أن هناك تشريعا يأخذ بيد المدين ، ويجعل المجتمع متكافلا معه فى سداد دينه عن طريق خزينة الدولة كما فعل الاسلام .

والنص فى ذلك صريح واضح .

فقد جاء فى آية مصارف الصـــدقات والزكاة المتقدمة كلمة

« والغــارمين » ضمن من تصرف لهم أموال الزكاة لاعانتهم .. وضعهم القرآن مع الفقراء والمساكين ، ومع أبناء السبيل ، وجعل الدولة كفيلة باعانة الجميع ..

وجاء فى تفسير المنار : (١)

« الغارمون : هم الذين عليهم غرامة من المال بديون ركبتهم وتعذر عليهم أداؤها ، واشترط الفقهاء أن تكون الديون فى غير معصية الله تعالى ، الا اذا علم أن الغارم تاب الى الله تعالى، وفى غير أسراف وسفاهة ، الا اذا رشد ، فكانت مساعدته من الصدقة عونا له على رشده ، وكذا الغارمون لاصلاح ذات البين ، وكانت العرب اذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة فى دية أو غيرها ، قام أحدهم فتبرع بالتزام ذلك ، والقيام به ، حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة »

هذا ما جاء فى القرآن وتفسيره

واليك ماجاء فى السنة النبوية :

روى مسلم فى صحيحه (٢) عن أنس بن مالك عن قبيصة بن مخارق الهلالى قال :ـ

تحملت حمالة (أى استدنت دينا) فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة ، فنأمر لك بها . ثم قال : ياقبيصة ، ان المسألة (أى طلب مال من بيت المال) لاتحل الا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة

---

(١) الجزء العاشر ص ٥٧٨

(٢) الجزء السادس وكذلك رواه احمد والنسائى وأبو داود .

حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أوقال - سدادا من عيش . ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة ، حتى يصيب قواما من عيش - أو قال - سداد من عيش . فما سواهن من المسألة ياقبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتا »

هذا الرجل الذى استدان وعجز عن الوفاء بالدين جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله أن يعينه من بيت مال المسلمين على سداد دينه ، واستجاب له الرسول ، ووضع مبادىء تعتبر من أرقى المبادىء الاجتماعية فى كفالة الدولة لرعاياها . رجل أصابت ماله جائحة فأتت على ماليته . على الدولة أن تعينه على معيشته ، ورجل احتاج ، وشهد له ثلاثة عقلاء ذوو بصيرة بأنه محتاج فعلا . على الدولة أن تعينه ، وذلك بجانب الرجل المدين الغارم .

مبادىء اجتماعية رحيمة لايزال أحدها وحيدا فى عالم المبادىء يختص به الاسلام دون سائر التشريعات ، هذه المبادىء تقررت منذ جاء الاسلام ، ونسيها أو أهملها المسلمون الآن . وراحوا يتسولون مثلها أو أقل منها ، ويفرحون بما يتسولونه ، وهم أغنياء بمبادئهم وثرواتهم التشريعية ، وفى غير حاجة لهذا التسول !!

ولو أنهم كانوا يعنون بأنفسهم ومصالحهم ، لأقاموا من مبادئهم مجتمعا لا نظير له فى العالم ، ولعضوا على هذه المبادىء بالنواجذ ، وضحوا فى سبيل تدعيمها بالغالى والنفيس .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أولى بالمؤمنين من انفسهم ، فمن توفى من المؤمنين وترك دينا فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته » .

ومعنى هذا الحديث ومغزاه واضحان لايخفيان على أحد ، فهو يضع مبدأ كفالة الدولة بسداد دين المتوفى ، اذا لم يترك مالا يسدد به دينه ، ومع ذلك فانها لاتقاسم الورثة مايتركه المتوفى اذا لم يكن عليه دين بل تتركه لورثته ، فهى تتحمل الغرم، ولكنها لاتقاسم الورثة الغنم بحجة مجابهة الحالات الأخرى التى يكون فيها ديون على المتوفين

مبدأ اجتماعى صريح ، يعلو كثيرا عن مستوى تفكيرنا فى هذه الأيام ، التى نضج فيها كثير من المبادىء الاجتماعية ، ويمكن للمسلمين أن يتحدوا به وبما سبقه تلك الدول التى تفخر بنظمها الانسانية والاجتماعية .

فمن لى بأناس يعتنقون هذه المبادىء ، وينافحون عنها ويسعدون أنفسهم ومجتمعهم بتحقيقها ؟

واذا تركنا هذا فخورين بنظريات الاسلام الاجتماعية لنبحث موقفه من النظريات الحديثة التى ولدتها الاشتراكية بكل أنواعها مثل الحد من الملكيات ، والتأميم ، والضرائب التصاعدية ، فاننا نستطيع أن نقرر فى جلاء أن الاسلام لا يقف حجر عثرة أمام النظريات التى يرى المجتمع فيها صلاح أمره .

فان القاعدة العامة فى التشريع الاسلامى — كما قلنا سابقا — انه يستهدف مصلحة المجموع ، وحيثما توجد المصلحة فثم شرع الله ، والشريعة انما جاءت لتنظيم الحياة وتيسيرها على الناس ، وتوفير الخير لهم لاتعقيدها أو تغليب الشر فيها .

فالاسلام يحترم الملكية الخاصة ، وهى من الأمور المباحة ، لكل انسان أن يتملك بالطرق الحلال السليمة مايقدر على تملكه .. ولكن اذا اقتضت المصلحة العامة نزع هذه الملكية ، وتعويض أصحابها ،

أو وضع حد أعلى للتملك ، رغبة فى اقامة التوازن فى المجتمع ، أو الحد من طغيان الملاك ، فان الاسلام لا يمانع فى ذلك بل قد يوجبه احيانا ان تعينت المصلحة فيه .

والأمر فى التأميم ، وفى الضرائب التصاعدية كذلك .

هذا من ناحية المبدأ . أما ناحية التطبيق فعلى الذين يرعون شؤون الأمة ، ويقدرون مصالحها ، عليهم أن ينظروا فى حال مجتمعهم ؛ ليقرروا على ضوء دراستهم ماهو أصلح لأمتهم . فقد يكون التأميم ضروريا ، وقد يكون مفسدة ، وقد يجر مفاسد لاحد لها . فالعبرة بحال الأمة . أما المبدأ فقائم ، والاسلام لايمنع منه .

وقد ضرب لنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفسهم المثل واضحا فى هذا ، حين أعملوا رأيهم فى بعض الأحاديث الخاصة بالمعاملات ، وفهموا أن ماحدده الرسول فيها انما كان لمصلحة يراها حين حدد الطريق ورسمه ، فاذا تغيرت الظروف فمن الممكن أن تقوم النظرة التشريعية على أساس المصلحة المستحدثة ، لأن التشريع يدور مع المصلحة عملا بالقواعد العامة للتشريع مثل «لاضرر ولا ضرار» وهو لا يخرج بهذا عن الشريعة لأنه ترك نصا واعتمد على نص آخر .

فقد تصرف الصحابة مثلا فى حديث اللقطة ، والتقطوا ضالة الابل ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد منع التقاطها ، وكما فعلوا فى تضمين الصناع لما يضيع منهم من حاجات الناس وكان الرسول قد منع تضمينهم باعتبارهم امناء ، ولا ضمان على مؤتمن ، ولكنهم رأوا التضمين لأنه لا يصلح الناس بعد أن فسدت الذمم الا هو .

وكذلك نهى عمر رضى الله عنه عن التزوج بالكتابيات ، مع ان القرآن أباحه ؛ لأن عمر رأى فى اباحته واقبال المسلمين على التزوج بالكتابيات - بعد امتداد الفتوحات - ضررا يلحق بالمسلمين والمسلمات أيضا فحظره ..

وهدفهم من هذا وأمثاله تحقيق مصلحة المجتمع ، تلك المصلحة التى تتغير حسب الظروف والملابسات ..

ومع أن هذه القاعدة معروفة . ومعترف بها فى التشريع الاسلامى ، ويمكن اعتمادا عليها أن نستحدث من التشريعات مايتناسب مع المصلحة العامة ونسد به الفراغ التشريعى ، فان هذه المسائل السابق ذكرها من تحديد الملكية والتأميم ، والضرائب التصاعدية لها أصول يمكن الاعتماد عليها فى تقريرها متى استدعت المصلحة ذلك .

فالذى فعله عمر رضى الله عنه فى أرض العراق التى فتحها الجيش وصارت غنيمة له يملكها أفراده ، قد نزع عمر ملكيتها الفردية وجعلها ملكا للدولة ، فجعل ما هو من حق الأفراد ملكا للأمة كلها، تنتفع بدخله وتنفق منه على الثغور والحصون والجيش، والبلاد التى لاتنتج مايكفيها .. وقال عمر لمعارضيه : أرأيتم هذه الثغور ! لابد من رجال يلزمونها (ويحمونها) ، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها أن تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرض والعلوج (أى الرجال المغلوبون من الكفار) ؟»

واقتنع المعارضون بوجهة نظر الخليفة ، وقالوا له : « الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، ان لم تشحن هذه الثغور ، وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر الى مدنهم » .

فقال عمر : «قد بان لى الأمر » وأستمر فى تنفيذ خطته .

وهذا يعتبر نزعا للملكية وتأميما ، كما أنه ورد أن الصحابة أيضا نزعوا ملكية بعض البيوت المحيطة بالمسجد وأدخلوها فيه . وهذا أمر مقرر فى الاسلام متى كانت المصلحة تستدعيه .

والضرائب التصاعدية لها أصل متين فى الاسلام فان القرآن والسنة قد حضا على الانفاق من المال فوق النسبة المقررة فى الزكاة وعنيا بذلك عناية شديدة ، والشىء الذى رغب فيه الشارع وحض عليه يمكن للحاكم أن يجعله الزاما متى كانت المصلحة تقتضيه .

وعندنا قول عمر المأثور حين قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء وقسمتها على الفقراء» فهذا العزم الذى لم يتم يحمل فى مغزاه أكثر من الضرائب التصاعدية ، والعبرة بالعدالة فى التشريع وفى التطبيق حين يسن الحاكم بذلك قانونا .

ومهمتنا هنا أن نبين فى حرص ودراسة أن التشريع الاسلامى بقواعده العامة لا يمكن أن يقف عقبة فى سبيل أى تشريع ضرورى لاصلاح حال الأمة ، وأن الحاكم المسلم له أن يستعين بهذه القواعد وبروح الاسلام العامة فى تحقيق المصلحة ودفع الضرر ، ليضع من القوانين داخل الدائرة التشريعية الاسلامية ما يراه كفيلا بتوفير الأمن والرخاء للأمة .

والاسلام بهذا لا يترك أى عذر لأتباعه اذا تركوه ، والتمسوا الدواء ووسائل النهوض من غيره ، فكل أسباب النهوض والقوة متوفرة فيه ، وقائمة على دعائم روحية خلقية تعتمد كلها على الايمان بالله ورسله واليوم الآخر .. وهـــذا مما يمكن لها السيطرة على النفوس ، ويريح الحاكم فى تنفيذ القوانين لصـلتها بضمير الأمة ودينها .

الحرية .. الإخاء .. المساواة

ومما يفخر به دعاة المدنية الحديثة ويتيهون ، ادعاؤهم انها التى وضعت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وأنها التى عرفت العالم مبدأ الضمان الجماعى ، ومذاهب الاشتراكية التى تحد من طغيان رأس المال ، واستبداد الرأسماليين ، وتحكمهم فى المجتمع ، وتنطق الأبواق من الغرب ، ويردد صداها أبناء من الشرق ، رضعوا من لبان الغرب ، يشيدون بفضل الحضارة الحديثة ، وسبقها فى اختراع هذه المبادىء ، وتعريف العالم بها .

ولا شك أن هذا ناشىء من الجهل أو الوهم ، . الجهل بالاسلام ومبادئه التى أقام عليها مجتمعا من أسعد المجتمعات التى عرفها التاريخ ، وأتاح لهم هذا الجهل أن تلمع مبادىء الغرب فى أذهانهم ، ويستقر الاعجاب بها فى نفوسهم ، فلا يستطيعون أن ينظروا لشىء سواها .

لهذا كانت الحاجة ماسة الى الكشف عن المطمور من مبادىء الاسلام الحكيمة ، وازالة الغبار أو الصدا الذى علاها ، من طول ما أهملها أهلها ، حتى يعرفها أبناء الاسلام وغيرهم .

والمعرفة هى أول مواكب الزحف نحو استرجاع مجدنا المفقود ، ورد اعتبار هذه المبادىء والنظم ، التى استطاعت فيما مضى ولا تزال حتى الآن تستطيع تكوين المجتمع السعيد .

لقد عانى الغرب كثيرا ، وسقطت فيه آلاف الضحايا من أجل الظفر بهذه المبادىء فى مجتمعه ، الذى طال غطيطه وأنينه ، تحت

وطأة الظلم والاستعباد الواقع عليـــه من رجال الحكم والاقطاع ورجال الكنيسة .

ولكن الاسلام حين جاء ، قرر هذه المبادىء فى يسر ، وتقبلهـا أهله فى سهولة ، بل اعتنقوها كجزء من عقيدتهم العامة ، التى تتوقف عليها سعادتهم فى الدنيا ، ومصيرهم فى الآخرة ..

وكانت هذه المبادىء كنبت صالح ، لبذرة صـــالحة ، عنى الاسلام بوضعها فى نفوسهم الخصبة أولا ، هذه البذرة كانت عقيدة التوحيد ، والارتباط بالله الواحد الأحد ، وعدم الخضـــوع لأحد سواه ..

الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت ظلالها أكفاء

وبهذا رفع الاسلام من أقدار الناس ، وربطهم جميعا بالسماء ، فأصبحوا فى ذلك سواء عبيدا لله متســـاوين أمامه ، ملتزمين بتعاليمه ، لايحد من حريتهم شىء ، وماداموا قائمين بهذه التعاليم . فقرر بذلك مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، قبل أن تعرفها أوربا بأكثر من ألف سنة ، ومارسها المسلمون فى حياتهم العملية ، ومجتمعاتهم التى كونوها فى أمم لم تذق قبلهم طعم هذه المبادىء .

ولقد كانت الحرية التى قررها الاسلام تشـــمل كل قطاعات المجتمع . فلم يعط الحرية لناحية ويهمل ناحية أخرى .

أعطى الحرية للشعب فى اختيـــار حاكمه الذى يباشر حكمه ، ولم يجعل للحاكم سلطة مستبدة ، بل قيد حكمه بالشـــورى . فلا يبت فى أمر من أمور المسلمين ، دون أن يستأنس بآرائهم ، ولا يقضى فيه دون اشتراكهم .

وأعطى الحرية للشعب فى نقد تصرفات حاكمه ، وتقويم اعوجاجه حين يعوج ، ويخرج عن القوانين التى رسمها القرآن .

وأعطى الحرية للأفراد أن ينقد بعضهم بعضا ، ويبصره بعيوبه ، وبالطريق المستقيم الذى ينبغى عليه سلوكه .

ولعل جماع هذه الحريات كلها ، كامن تحت قوله تعالى فى وصف المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم » ؛ فقد وضع هذا الوصف بجانب صفاتهم الحسنة الأخرى من الصلاة ، والانفاق مما رزقهم الله ، والتوكل عليه ، والاستجابة لأمره (١) ، وما ذلك الا لخطر الشورى وأهميتها فى حياة المسلمين ، تلك الأهمية التى جعلت المولى سبحانه يأمر رسوله — وهو المحروس بالوحى — باجرائها بين أصحابه فيقول فى سورة آل عمران :

« وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ »

ولا عجب ، فمن الشورى — حين تقوم على أساس سليم — تنبع كل الحريات .

ومعنا من الشواهد القولية والفعلية على عناية الاسلام بالحرية الشىء الكثير

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى تقعيد حرية الشعب فى نقد الحاكم وتوجيهه « من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير عليه ، بفعل أو قول ، كان على الله أن يدخله مدخله » .

« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى فى سورة الشورى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » الى أن قال « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

وهذه الشواهد ، تحمل الأمة مسئولية كبرى أمام الله ، ازاء موقفها من تصرفات الحاكم ، وتوجب عليها أن تقف له بالمرصاد ، تراقب تصرفاته ، وتقيسها بمقياس قوانين الاسلام والمصلحة العامة ، حتى اذا وجدت فيها خروجا نصحته ، وقومته وردته الى الطريق المستقيم ، وهى حين تفعل ذلك ، تفوز برضا الله ، وتحقق لنفسها الحكم السليم ، والحياة المرضية ، وان لم تفعل وتركت الحاكم — أى حاكم صغيرا كان أم كبيرا — يعبث بالقوانين ومصالح الشعب ، تحملت وزر ذلك ، وباءت بمشاركة الحاكم فى مسئوليته وعقابه ، وكانت جديرة به وبما ينزله بها من عبث وجور « وكما تكونون يولى عليكم » .

وعلى الذى يلى أمور المسلمين أن يعد نفسه لتقبل النصح والنقد والتوجيه ، ويفسح صدره لذلك ، وان لم يفعل فعلى المسلمين الا يكفوا عن نصحه ، وان استطاعوا أن يعزلوه عزلوه . ولهم فى ذلك أجر المجاهدين .

وعلى هذا الأساس السليم القويم ، سار الرسول وخلفاؤه من بعده ، فاستمع عليه الصلاة والسلام الى ملاحظة أصحابه بالحسنى ، ورجع عن بعض آرائه ، وأخذ برأى أصحابه ، كما هو ثابت فى غزوة بدر مع المنذر بن الحباب ، وفى غزوة أحد فى خروجه لقتال المشركين ، وفى غزوة الخندق ، فى فكرة حفر الخندق .

بل نجده يفعل ذلك فى أمر من أمور الدين الخاصة ، حين قال صلى الله عليه وسلم « من قال لا اله الا الله دخل الجنة » واستأذن أبوهريرة فى تبليغ ذلك الى الناس ، ولكن عمر رضى الله عنه قابله وصده عن التبليغ ، وأمسك به ، وأرجعه للرسول فى شىء من الشدة ، وبين له وجهة نظره فى منعه من التبليغ ، حتى لا يتكل الناس على ظاهر القول ، ويتواكلوا عن العمل . فقبل منه الرسول

وجهة نظره فى رضا وسماح ، وأمر أبا هريرة ألا يبلغ الناس ذلك .

فهذه هى الحرية فى معارضة الحاكم ، قبلها الرسول ، واطمأن اليها ، وأخذ بوجهة نظر عمر ، دون غضب أو استنكاف. وما يجوز لحاكم أيا كان — بعد مافعل الرسول ذلك — أن يستنكف من المعارضة ، أو يستعلى عن النصح والتوجيه ..

وقد سار الخلفاء على ذلك الهدى قولا وفعلا .. بل حرصوا فى مبدأ توليهم الحكم على أن يطلبوا من المسلمين ذلك ، وأن يضعوا لهم دستور الحكم الحر فى كلمات قليلة ، ولكنها فاصلة : « انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وكان هذا الذى يقوله الخليفة أمرا مقررا ثابتا مفهوما عنده ، وعند الشعب ، حتى وجدنا رجلا يقوم ويعلق على كلام الخليفة فى حرية وبساطة ويقول له « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا »

ويستمع عمر الخليفة لهذا الكلام — وهو المعروف بالبأس والشدة — فلا يغضب أو تأخذه العزة بالاثم ، بل يفرح ويغتبط لهذه الحرية النامية فى أمة محمد ، ولهذا الغرس الطيب الذى غرسه الاسلام فى النفوس ، حتى أحس هذا الرجل بواجبه ، وقام به وهو يعرف أن الجو الذى يعيش فيه ، ويحيط به وبالخليفة ، يسمح له باعلان رأيه هذا وهو آمن مطمئن .

ثم يجد التجاوب الطبيعى من نفس عمر ، فى نفس اللحظة ، حين رد عليه ، وقال وهو مغتبط : « الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بحد سيفه » .

صوت رائع ينبعث من صفوف الشعب ، ولكن كان أروع منه ، ذلك الصوت الذى انبعث من الخليفة الحاكم وعمر كان أروع منه ، تقبل النقد علنا ، وهو خليفة يخطب على المنبر ، وتقبله من امرأة مسلمة استمعت اليه ، وهو ينهى عن التغالى فى المهور ، فذكرته بالقرآن ونص ظاهر فيه :

« وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا »[1]

فرجع عن قوله ، وأعلن من فوق منبره ، وعلى عامة المسلمين، فى رضا وسرور ، وفى صراحة الحاكم العادل الحر القوى « أخطأ عمر ، واصابت امرأة »

وعمر هو الذى يقف فى قضية المصرى القبطى ، مع ابن عمرو ابن العاص ، وقفة لله وللحق ، ويوجه الكلام الى عمرو حاكم مصر بعد أن أنصف المصرى ، ويقول قولته الخالدة : « ياعمرو .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

والحوادث التى تدل على مدى الحرية التى تمتع بها الناس — مسلمون وغير مسلمين — فى ظل الاسلام والحكام المسلمين الأول ، أكثر من أن تحصى ، ومهما بلغ العصر الحديث من حرية ، فلن يصل الى ماوصل اليه المسلمون .

لقد وهب الاسلام الحرية لكل الناس — المسلم وغير المسلم — مادام يستظل براية الاسلام .

اما الحرية التى يتشدق بها دعاة الحرية كذبا فى العصر الحديث فهى ان وجدت لديهم فانهم لا يسمحون بتصديرها للخارج ،

(١) سورة النساء

ولا يعرفونها حين يعاملون غيرهم أو يحكمونهم ، والأمثلة على ذلك من الواقع كثيرة تزحم الرءوس والكتب والصحف ..

فليقل لى اذن دعاة استيراد المذاهب من الخارج ، من أى مكان، ومن أى مذهب ، يمكن لهم أن يستوردوا لنا مثل أو قريبا مما عندنا فى الاسلام ؟ .

اننى لأعجب من هؤلاء المسلمين الذين يتقاطرون كالأنعام ، على وضع القيود فى أيديهم ، والأغلال فى أعناقهم يستوردونها من الشيوعية ، أو من غيرها من المذاهب ، ويتنازلون مختارين عن اسمى المبادىء التى جاء بها الاسلام وهى الحرية .

الا يمكن لهم ان يباشروا حقهم الطبيعى فى الحرية التى جاء بها الاسلام بدل التهافت على وضع هذه الأغلال فى أعناقهم ؟ .

من لى بأناس يفهمون الاسلام ، ويقتنعون بمبادئه ، ويعملون بها ولها ، من أجل تدعيم بنيانهم ، وشخصياتهم وكيانهم ، كأفراد ، وكأمة لها مجدها وذخائرها ؟ !

والاخاء : جعله الله بين المسلمين جميعا لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وأبيضهم وأسودهم ، وحاكمهم ومحكومهم ، اخاء لامن فيه ، ولا تمايز ، اخاء فى الله ، بين أناس جمعتهم فكرة ، وسيرتهم عقيدة ، وان اختلفت ديارهم ، ولغاتهم ، وألوانهم .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[1]

---

(١) سورة الحجرات

ويدعم هذا المبدأ القرآنى ويشرحه ، قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه ولايخذله، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » .

وبجوار هذه الأخوة الدينية ، التى تجمع شتات المسلمين من الشرق والغرب ، وتجعلهم أسرة واحدة ، يضع القرآن ويقرر أخوة انسانية عامة بين الناس أجمعين حين يقول :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . . »(١)

فأصل الناس واحد ، وكلهم اخوة بهذا الاعتبار ، وانما جعلهم الله شعوبا وقبائل ، ليتصل بعضهم ببعض ، ويتصاهروا ، ويتقاربوا ، لا ليتباعدوا ويختلفوا ويتحاربوا .

وفى نطاق هذه الأخوة العامة ، حرم الاسلام على المسلمين أن يعتدوا على أحد ، ممن لايشاركهم فى دينهم ، مادام المخالفون لهم فى الدين يرعون حق هذه الأخوة العاملة ، ويعيشون معهم فى سلام ، ولا يعاونون عليهم عدوهم ، ولا يصادرونهم فى حريتهم وعقيدتهم .

بل وجه المسلمين الى حسن معاملتهم ، والبر بهم ، مراعاة لحق الأخوة العامة .

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .(٢)

---

(١) سورة الحجرات

(١) سورة الممتحنة

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم «من آذى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة » .

ويقول : « من قتل نفسا معاهدة بغير حلها (بغير حق شرعى يوجب القتل) ، حرم الله عليه الجنة أن يجد ريحها » .
وفى نطاق الأخوة العامة ، وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم، يقف عندما مرت به جنازة يهودى من يهود المـــدينة ، وحين استغرب صحابى من الرسول وقفته هـــذه واعترض ، أجابه الرسول هذا الجواب الانسانى الكبير « أليست نفسا ؟ »

* * *

ومن الأخاء الخاص والعام ينبعث مبدأ المساواة فى الاسلام ، حرص عليها منذ جاء :

مساواة بين الرسول وتابعيه ، بين الحاكم والمحكوم ، وبين المحكومين بعضهم مع بعض ، مساواة عامة وعادلة أمام قانون الله ، لايميزهم جنس أو نسب أو مركز مهما سما «الناس ســواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعجمى على عربى ، ولا لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض الا بالتقوى، أو عمـــل صـــالح . كلكم لآدم وآدم من تراب » فما يميزهم الا عملهم وخلقهم وما يؤدونه للمجتمع من خدمات . . والرسول صلى الله عليه وسلم يبدأ فيضرب المثل بنفسه ، وببنته العزيزة على نفسه فيقول : —

« من كنت جلدت ظهرا فهذا ظهرى فليستقدمنه ،ولايخشى الشحناء فأنها ليست من شأنى » .

« يا فاطمة اعملى فأنى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

« لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ويقول الرسول المسلمين « اسمعوا وأطيعوا وأن ولى عليكم عبد حبشى .. »

وفى حياة المسلمين أمثلة رائعة من هذه المساواة ، لم تكن موجودة قبل الاسلام ، فلما جاء رفع من قدر العبيد ، وأعلى شأنهم بحسن ايمانهم وبلائهم . وأقام بينهم وبين كرائم البيوت القرشية الهاشمية نسبا ، حين زوج الرسول بنت عمته زينب ، لعتيقه زيد بن حارثة ، وحين أشار على فاطمة بنت قيس القرشية المهاجرة ، أن تتزوج أسامة بن زيد ، وتترك معاوية بن أبى سفيان وأبا جهم ، وهما منهما نسبا فى قريش وأسامة ابن عتيقه زيد ..

ورأينا هذه الروح المثالية، تسرى فى أصحابه ، فيتزوج عبدالرحمن ابن عوف — وهو قرشى من خيرة الأصحاب — أخته « هالة » بلالا الحبشى ، صاحب رسول الله ومؤذنه رضى الله عنهم جميعا .

ويعرض عمر رضى الله عنه بنته « حفصة » على «سلمان الفارسى» قبل أن يخطبها الرسول صلى الله عليه وسلم .

وتقول عائشة ، وهى تتحدث عن زيد بن حارثة مولى الرسول « مابعثه الرسول فى سرية الا أمره عليها ، ولو عاش بعده لاستخلفه » .

وهكذا فعل قبيل وفاته مع « أسامة بن زيد » حين جعله قائدا عاما على جيش المسلمين ، وفيهم أكابر الصحابة ، وهو شاب صغير وابن مولاه زيد .

ويأتى خلفاؤه عليه الصلاة والسلام ، فيسيرون على هديه ،

ويدعمون المبادىء التى اعتنقوها دينا ، فيسير أبو بكر رضى الله عنه ماشيا ، وهو يودع القائد المولى « أسامة » راكبا على فرسه ، متجها الى حرب الروم .

ويقول عمر رضى الله عنه حين وفاته ، ردا على من يشير عليه باستخلاف أحد من المسلمين : لو أدركنى أحد رجلين ، فجعلت هذا الأمر اليه لوثقت به : سالم مولى أبى حذيفة ، وعبيدة بن الجراح » .

وسالم هذا كان عبدا رقيقا لزوجة أبى حذيفة ، فأعتقته ، وتبناه أبو حذيفة ، وزوجه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة. وهكذا رفعه عمله الى هذه المنزلة ، ولم يقعد به نسبه ، فى مجتمع لا ينظر الى اللون والنسب ، ولكن يقيس الناس بكفاآتهم واخلاصهم ..

وعمر وهو الخليفة يقف أمام «شريح» فى خصومة بينه وبين أحد أفراد رعيته ، وينظر « شريح » أمر الخلاف ، ويحكم على عمر ، ويقول له : أخذت الفرس صحيحا سليما ، فيجب أن ترده صحيحا سليما كما أخذته » ويغتبط عمر بما فى شريح من روح العدل والانصاف ، وعدم المجاملة على حساب الحق ، ويعينه قاضيا .

ويختصم الخليفة العباسى «المأمون» مع رجل من رعيته، ويلجآن للقاضى « يحيى بن أكثم » قاضى بغداد ويدخل الخليفة للمجلس ، ووراءه خادمه ، يحمل طنفسة لجلوسه ، فيرفض القاضى أن يتميز الخليفة على خصمه فى مجلس القضاء عن أحد رعاياه ، ويقول له: يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه » ، فيستحى الخليفة ، ويدعو بطنفسة أخرى ، يجلس عليها خصمه . .

صور رائعة ، ومتعددة ، من صور المســــاواة التى جاء بها الاسلام ، نمت وترعرعت وازدهرت فى ظل المجتمع الاسلامى . ما أكثرها .. ويكفينا منها ما ذكرنا لنعرف فضل الاسلام على الانسانية قبل أن تعرف أوربا شــيئا من ذلك بأكثر من ألف سنة .

وياليت أوربا — حين عرفت ذلك — حرصت على تطبيقه فى معاملة الناس .. فقد مرت قرون على هذه المعرفة ، وتشدقها بألفاظها يكاد يغطى على عملها ، بل ان عملها فى التفرقة بين الناس يقتل هذه المعانى التى يتشدقون بها ، ويجعل الفاظهم ألفاظا جوفاء لاظل لها ، ميتة لا روح فيها .

وأمامنا مانراه فىمعاملتها للأمم التىينكبها سوء الحظ باستيلائها عليها منأمثلة دامية شنيعة ، بل أمامنا مانراه فى معاملتها لرعاياها ، أبناء الوطن الواحد فى أمريكا وغيرها من البلاد التى تضطهد الملونين وتحتقرهم ، وتعاملهم كانهم حيوانات أو أحط ..

وما نعرفه جميعا مما تفيض به الكتب وانهار الصحف والمجلات عن هذه المعاملة ، وحوادثها الرهيبة فى أمريكا ، وجنوب أفريقيا ووسطها ، يعفينا من سرد الأمثلة ..

فأين حضارة الغرب ومدنيتها من الاسلام ومبادئه ؟ أين الثرى من الثريا ؟!!

ومع ذلك لانزال نرى أناسا غافلين عما فى اسلامهم من هذه المعانى السامية الكريمة ، مشدودين بأبصارهم وبصائرهم الى الشرق أو الغرب ، وما فيه من ظلم وظلام !!

فمتى يفيق هؤلاء ، ويرجعون الى صوابهم ، وينصفون أنفسهم ودينهم ومبادئهم ؟!
متى ؟ ؟ ؟

وبعد

فاذا كان لدينا كل هذه الثروة التشريعية ، ولدينا كل هذه المبادىء الاجتماعية الرائعة .

فلماذا نحن ساكتون عنها مهملون لها ؟

ولماذا لم يخرج بها المسلمون فى كل شعب اسلامى الى حيزالعمل والتطبيق ؟ !

الحق أن هذا سؤال طبيعى ، يدور فى النفس حتما بعد أن نعرف كل ما تقدم ، سؤال يوجهه الانسان لنفسه ولكل من بيدهم أمور المسلمين فى كل مكان ..

والحق أيضا أن ابتعاد المسلمين الآن عن تشريعهم الأصيل ، وعدم اتجاههم اليه ، يعود بعض أسبابه الى تحكم الاستعمار فى الأمم الاسلامية ، والاستعمار لا يريد أن تكون هناك صلة بين المسلمين ودينهم وتشريعهم ، ولذلك فان الأمم الاسلامية التى تخلصت من الاستعمار ، واستقلت بادارة أمورها بأيديها وعقلها وتفكيرها عليها مسئولية ضخمة ازاء تشريعها .

وبعض الأمم الاسلامية المستقلة من قديم تتحمل مسئولية أضخم حين تبتعد عن التشريعات الاجتماعية الاسلامية وتكتفى ببعض القوانين الاسلامية ، وحكام هذه الأمم هم الذين يحملون الوزر كله ، ففى استطاعتهم — من زمن لو تخلصوا من مآربهم الشخصية — أن يضربوا للعالم أروع الأمثلة لو طبقوا مبادىء

الاسلام الاجتماعية فى شعوبهم . وقدموا للعالم نماذج راقية من هذه المبادىء وأثرها فى اسعاد البشرية .

وهؤلاء وأولئك ممن بيدهم أمور المسلمين يقفون بشعوبهم فى مفترق الطرق ، وأمام تيارات عاتية من الشيوعية التى تلوح للغارقين فى الظلم بما يسمونه — زورا وبهتانا — وسائل الانقاذ . . ان فى الشعوب الاسلامية — كما قلت — فراغا نفسيا خلفه اهمالنا لنظمنا وتشريعنا ، كما أن فيها أمراضا اجتماعية متوطنة خلفها الضعف والاستعمار ، وعلينا أن نسارع لملء الفراغ ، والقضاء على هذه الأمراض بدوائنا الخاص الذى يلائم الروح الشرقية .

فان المريض الذى يطول به مرضه ، والدواء الصحيح يلوح له به بعيد ، ولايمكن من تعاطيه ، يقع حتما فى أيدى الدجالين والمشعوذين وأدعياء الطب التماسا للنجاة والشفاء من أى طريق . ان الطب الحديث الآن يتجه فى علاج الأجسام الى نباتات البيئة التى تكيفت بها هذه الأجسام ، ويداوى كثيرا من المرضى بارجاعهم الى بيئتهم الأصلية التى نشأوا فيها ، والأمر فى علاج النفوس أوضح من ذلك وألزم .

وتشريعنا القومى الذى ننادى به تشريع شرقى أوحى به الله الى عبد شرقى فى أرض شرقية ، وتفاعل معنا وتفاعلنا معه مئات السنين ، وتغلغل فى أعماق نفوسنا ، وسيطر من قديم على عاداتنا وتقاليدنا ، مسلمين وغير مسلمين فان لم نتعصب له كتشريع دينى فلنتعصب له لأنه تشريع شرقى قومى ، يمكن الاعتماد عليه لعلاج أمراضنا ولنترك تفاهات النفوس ، ولنجابه الواقع بما يناسبه ؛ فان الشيوعية لاترحم دينا ولا متدينين ، وهى تنظيم

يقوم على فكرة ، ولا يمكن مقاومتها الا بتنظيم يعتمد أيضا على فكرة .

وان لم تكن عندنا الشجاعة الكافية فى تدبير الأمور وحسمها فاتنا القطار ، وأفلت منا الزمام ، ولا ينفعنا حينئذ أن نجلس جميعا نندب حظنا ونبكى على تعاستنا .

ان من الواجب على الدول والبيئات الاسلامية أن تعنى بتعزيز الروح الدينية وغرسها فى نفوس الشباب فى البيت والمدرسة والاذاعة والصحافة والسينما وفى كل مظاهر الحياة وأن يرسم لذلك تخطيط له هدف مقصود كمارسمت تخطيطا للنواحى الأخرى من حياتنا ، حتى لانرى جهودا وأموالا تبذل لتقوية الروح الدينية فى النفوس ، ثم نرى فى الوقت نفسه أموالا وجهودا تبذل فى أعمال وأقوال ، تفعل فعلها فى هدم الروح الدينية وزعزعتها ، — والشر غلاب كما يقولون —

ماذا علينا حين نضع تشريعا من التشريعات أو نقوم بعمل من الأعمال أن نقول هذا مما يوصى به الاسلام ، وهذا مستمد من تشريع الاسلام بدل أن نقول انه مستمد من أوربا أو أمريكا ؟؟

لقد رأينا أفاكين يقيمون دولة على الضحايا من أبناء البلاد وعلى أساس دينى بحت ، ويعلنون ذلك فى أفعالهم وأقوالهم ومؤتمراتهم ، ووجدنا دول العالم القوية كلها تناصرها وتؤيدها وتمدها فى طغيانها وغيها . فماذا يضيرنا حين نعمل ذلك ونعلنه للناس ؟ ؟

ان الشعوب الاسلامية الآن فى مفترق الطرق ، وهذا وقت العمل ، وارتياد الطريق المستقيم . فلا تفسحوا المجال للشر يأخذ علينا طريقنا ، حتى لا يكون غيرنا فى باطله ، أقوى منا فى حقنا.

والسلام على من اتبع الهدى

بعض مراجع الكتاب

القرآن الكريم
كتب التفاسير
كتب الأحاديث
كتب السيرة

الاسلام والشيوعية	:	للمؤلف
الشيوعية والاسلام	:	للأستاذين العقاد وعطار
بين الشيوعية والاسلام	:	« النواوى وخفاجى
جمال الدين الأفغانى	:	للدكتور قاسم
الاسلام والنصرانية	:	للشيخ محمد عبده
الدين والعلم	:	للمشير أحمد عزت باشا
كنوز الاسلام	:	للدكتور غلاب
العلم يدعو للايمان	:	ا . كريسى موريسون . ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى
خاطرات جمال الدين الأفغانى	:	للأستاذ محمد المخزومى باشا
الرد على الدهريين	:	للسيد جمال الدين الأفغانى
الاسلام بين الأنصاف والجحود	:	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
كتاب الفقه	:	للدكتور محمد يوسف موسى
الاسلام على مفترق الطرق	:	للأستاذ محمد أسد
كارثة القرم	:	« يوسف ولى شاه
مجلة العرب (كراتشى)	:	« عبد المنعم العدوى
مجلة الشؤون السوفييتية		

فهرس

للمؤلف :

- الإسلام والشيوعية : طبعة ثانية
- تاريخ الإسلام فى الهند : صدر ١٩٥٨
- بين الدين والحياة : طبعة الهند (مترجم للأوردية)

تحت الطبع :

- مسلمو الهند فى ظل الاستعمار حتى قيام باكستان
- سبعة وعشرون شهراً فى الهند

الثمن
١٠ ص